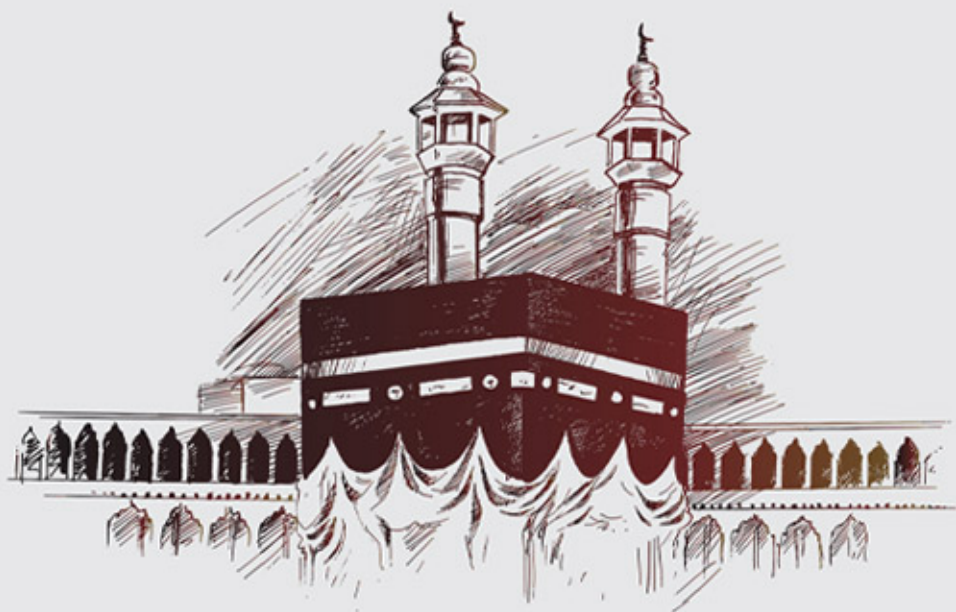




بصائر من الوحي في

حكمة الحج

وأحكامه

من دُرُوس سَاحَةِ الْمَجْعِ النَّبِيِّ آيَةُ اللَّهِ الْعُظْمَى
السَّيِّدُ مُحَمَّدٌ تَقِي الْمُدَرِّسِي

بصائر من الوحي في حكمة الحج واحكامه

من دروس:

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى
السيد محمد تقي المدرسي دام ظله



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾

يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ

بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ

ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدْوَرَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ

ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا

يَنْتَلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْتَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿



المقدمة

وصايا السيد المرجع لطالب العلم

١- العلم من الله

كما لو كان للإنسان مزرعة وبجنبها نبع ماء صافٍ يروي به مزرعته كلما احتاج إليه، كذلك مزرعة الفقه والمعرفة، فهي تتعرض للجفاف وقلة الثمر، والسبيل لسقيها وربّها عبر توحيد الله عز وجل، ذلك لأنّ أول العلم معرفة الجبار، فالتوجه إلى الله يفتح لزيد الفهم. المعرفة الدينية تختلف عن سائر المعارف، فالدين من الله سبحانه وتعالى، وإشراقاته منه سبحانه، فلا يمكن الاكتفاء بمجرد قراءة الدعاء مثلاً، فيقول طالب العلم: [اللهم إني أعوذ بك أن أجهل أو يُجهل عليّ] أو الأدعية التي تُقرأ عند بداية الدرس، ومن ثم يرجو أن يصل إلى حقيقة العلم، كلا، إنما لا بد أن يكون التواصل مستمراً، وبالذات عند الاصطدام ببعض المشاكل والقضايا المعقدة، فإنه وفي حال الاهتمام الكبير والمتصاعد بالعلاقة مع الله فإنّ الآفاق تتفتح أمامه بشكل كبير.

ينبغي لطالب العلم أن يجعل طريقه إلى العلم طريقين: الأول في



النهار، حيث عليه أن يقرأ الكتب ويحضر الدروس والبحوث، والثاني في الليل، حيث يأخذ العلم من الله تعالى بشكل مباشر: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾^١، فالمقام المحمود اختصه الله تعالى بالذين يقومون الليل ويتهجدون في الاسحار.

٢- الحوزات والبعد التربوي

في السابق كان هناك ما يسمى بالأديرة، والدير هو المكان المناسب الذي كان يلجأ إليه بعض الناس بقصد التبذل إلى الله تعالى، لما فيه من أجواء هادئة وبعيدة عن صخب الدنيا في سبيل تزكية أنفسهم وتطهيرها.

ويبدو أن حوزاتنا العلمية كانت بديلة عندنا نحن الشيعة عن الأديرة، فالذي يدخل إلى الحوزة ليس هدفه الحصول على العلم وحسب، وإنما - إضافة الى ذلك - يهدف إصلاح النفس وتركيتها. ونحن إذ نقرأ في القصص المتناثرة كيف أن علماءنا كانوا يتعاهدون تلاميذهم بمثل هذه الأمور، فيسأل الواحد منهم: هل صليت البارحة صلاة الليل؟ هل قرأت زيارة عاشوراء؟ هل صمت الأيام البيض؟



وهكذا ما يشبه هذه التوجيهات، وهذا لعمرى أعظم ثواباً وأعظم فائدة من العلم الذي يكتسبه من نفس العالم، ذلك لأن العلم قد يراه في كتاب فيقرأه، أو في درس يسمعه، بينما التوجيه المباشر الذي يتفضل به أستاذه هو فوق العلم.

ولذلك نجد اهتماماً من طلاب العلوم الدينية ليكونوا قريبين من العلماء الصادقين، من أجل الحصول على البُعد التوجيهي من أنفاسهم الزكية ليكون لهم عوناً على تطهير أنفسهم وإصلاح ذواتهم. من هنا أقترح أن يتم إضافة بُعد التوصية والتركية والموعظة إلى برامج الحوزات العلمية، لما له من تأثير كبير على طلاب العلوم الدينية.

فالحوزة العلمية ليست مجرد إطارٍ علمي، وإنما أيضاً هو إطار تربوي، وقد يكون شبيهاً بالأديرة والمساجد، ورسول الله ﷺ يقول لأصحابه: **[إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعَوْا فِيهَا]** قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: **[مَجَالِسُ الذِّكْرِ]**^١، والظاهر أن المراد هو مجالس العلم، فمجالس العلم هي روضة من رياض الجنة، وليست مجرد معلومات عابرة وخاطفة.

هذا البُعد لا بد أن نعمل على توفيره في حوزاتنا العلمية بآية صورة



ممكنة، وربّ مدرسة ظاهرها خراب، وإمكاناتها قليلة، والاعتراف بها من قبل الآخرين شحيح، ولكن النفس الزكيّة التي في هذه المدرسة والعالم الربانيّ الذي فيها هو الذي يجعل الطلاب يتهافون عليها ليستفيدوا من محضر العالم الربانيّ.

ولكن إن لم يكن في الحوزة عالمٌ من هذا الطراز الرفيع فيقتبس الطلبة من رشحاته التربوية فإنّ الحل البديل هو أن يبحثوا عن هذا النوع وعن مكان تواجدته فيقومون بزيارته والجلوس عنده، أو العكس حيث يطلبون من العالم زيارة الحوزة، من أجل الحصول على شيء من روحه المعنوية، ولقد كانت زيارة المدارس الدينية عادة طيبة عند علمائنا الكرام.

٣- طالب العلم والوعي السياسي

إننا - سواء في حوزاتنا العلمية أو غيرها - وفي هذه المرحلة بالذات، نمر بظروف سياسية قاسية، حيث تدع الحليم حيراناً، فأمتنا الإسلامية اليوم تمر بأمواج متلاحقة من الإعلام الخبيث المسموم الذي يهدف تحريف الناس عن الحق وإضلالهم عن الطريق، فيحول الأبيض أسود والأسود أبيض، فيخدع الناس بزخرف القول.

لذلك على طالب العلم أن يتعلم التحليل السياسي وفهم الظروف،



لكي يميّز الأمور في عالم السياسة ويتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

أنا لا أدعو لوجود مثل هذه الحلقات بشكل دائم مما يسبب الانشغال عن طلب العلم، إنما لا بد أن يكون الاهتمام بالقضايا السياسية ولو بشكل محدود للإحاطة بالأحداث، إذ عدم فهم الواقع وعدم الإحاطة بمجريات الساحة السياسية يسبب كارثة لطالب العلم، حيث ترى أحدهم يسأل الآخر: كم عمر داعش؟ فيجيبه: لا أعلم، ولكن بحدود الأربعين عاماً! حيث يتصور أن داعش هو اسم شخص، وهذا بسبب المستوى المتدني من المعرفة السياسية.

فلا بد من الوعي السياسي، لكي يفهم طالب العلم ما يجري حوله وما يجري في العالم، لأنّ طالب العلم يتمتع بمكانة خاصة بين الناس، فيحتاجون إلى توجيهه ورأيه في الأمور والحوادث المستجدة على الساحة السياسية المحلية أو الدولية، فكيف إذا كان غير مدرك لأبسط ما يدور من أحداث.

ولا بد من معرفة الأصول الأساسية للتحليل السياسي من القرآن الكريم ومن الروايات الشريفة، وكذلك من التجارب السابقة لعلمائنا الكرام، ذلك لأن الشيعة عبر التاريخ واجهوا تحديات كبيرة وممريرة،



فهم اليوم قد اختزنوا من تلك التحديات المزيد من التجارب،
فيفهمون كيف يتعاملون مع كل عارض ومع كل حادث، وينبغي أن
لا نستهيئ بهذه التجارب.

فمعرفتنا بهذا التاريخ الحافل بالتجارب، يؤهلنا للاستفادة من تلك
التجارب كما يسهل علينا التعامل مع الأحداث السياسية، وهذا من
مسؤولية طالب العلم الذي سيكون عالماً في الغد والأمة تحذو حذوه،
فيخزن هذه المعرفة في نفسه وعند اللحظة الحاسمة ينتفع بها.



الفصل الأول:

مباحث تمهيدية





١- القرآن وآيات الأحكام

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ * يَتَّبِعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^١.

القرآن كلٌّ لا يتجزأ، ووحدة واحدة لا يمكن فصل بعضها عن البعض الآخر، ويستنكر القرآن تجزئته والایمان ببعضه وترك البعض الآخر: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ



أَجْمَعِينَ ^١، وإمامنا أمير المؤمنين عليه السلام يقول: **[إِنَّ الْكِتَابَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَ أَنَّهُ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ: وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا]** ^٢، وعلى هذا فإن كل آيات القرآن الكريم - وبشكل من الأشكال - نعتبرها آيات للأحكام، وربما نجد في روايات أهل البيت عليهم السلام تبياناً للآيات بصورة غير مألوفة عندنا.

فعلى سبيل المثال: روي عن عبد الله بن سنان، عن ذريح المحاربي، أنه قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن الله أمرني في كتابه بأمر فأحب أن أعمله. قال: **[وَمَا ذَاكَ؟]** قلت: قول الله: **[ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ]** قال: **[لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ لِقَاءَ الْإِمَامِ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ تِلْكَ الْمَنَاسِكُ]**. قال عبد الله بن سنان: فأتيت أبا عبد الله عليه السلام فقلت: جعلت فداك قول الله **[ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ]** قال: **[أَخْذُ السَّارِبِ وَقَصُّ الْأَظْفَارِ وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ]**. قلت: جعلت فداك، فإن ذريحاً المحاربي حدثني عنك أنك قلت ثم ليقيموا تفثهم: لقاء الإمام، وليوفوا نُذُورَهُمْ تلك المناسك. قال: **[صَدَقَ ذَرِيحٌ]**

١- سورة الحجر، الآية: ٩١-٩٢.

٢- الاحتجاج، ج ١، ص ٢٦١.



وَصَدَقَتْ، إِنَّ لِلْقُرْآنِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَمَنْ يَحْتَمِلُ مَا يَحْتَمِلُ
دَرِيحٌ.^[١]، فأين التفسير الأول من الثاني؟ فهذا تفسير غير مألوف،
مما يدل على أن القرآن الكريم شامل، وفيه كافة الأبعاد.
ومن هنا نجد علماءنا وعلى مر التاريخ كانوا على قرب دائم من
القرآن الكريم.

ونحن حينما ندرس فقه الآيات فإننا لا نقتصر على بعض الآيات
لورود بعض الكلمات المباشرة في الموضوع المراد تناوله فيها، وإنما
نحاول أن نتمم في سائر الآيات الأخرى ونتدبر فيها للوصول إلى
الأحكام الشرعية.

وعلى سبيل المثال: الآية الكريمة التي بدأنا بها البحث تفسر لنا
حقيقة العلم، فالعلم هي الكلمة الطيبة التي هي كشجرة طيبة أصلها
ثابت وفرعها في السماء، فمن يريد الشجرة فإنه لا يقتصر على
جذورها أو سيقانها أو فروعها أو ثمرتها أو أوراقها فقط، إنما يأخذها
بشكل كامل، بما فيها من سائر التفاصيل، وهكذا العلم وهكذا
القرآن الكريم، فلا بد أن نأخذه بشكل كامل.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾.



حسب ما يبدو لنا إِنَّ لفظة (الكلمة) في الآيات القرآنية تعبير عن الحقائق، وكنموذج:

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^١.

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾^٢.

﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ﴾^٣.

فالقرآن الكريم كلمة، والنبي آدم تلقى من ربه كلمات، وعيسى ابن مريم عليه السلام كلمة، أي جزء من الحقيقة.

فحقائق القرآن الكريم (كلمة طيبة) فمن أراد أن يعرف حكماً شرعياً، لا بد أولاً أن يعرف الإطار العام، كمن يريد التعرف على مدينة معينة لا بد أن يعرف جغرافيا المنطقة والشعب الذي يسكن فيها وسائر الأمور العمومية الأخرى، ثم بعد ذلك يكون الدخول في التفاصيل، فمن خلال الأمور العامة في الآيات، كمعرفة الرب، ومعرفة أسمائه الحسنی، ومعرفة السنن في الخلق، ومعرفة الأفعال والآيات في الخليفة، من خلال كل ذلك تتم معرفة القرآن.

١- سورة البقرة، الآية ٣٧.

٢- سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

٣- سورة النساء، الآية: ١٧١.



القرآن كله كلمة واحدة وتمثلت بقوله تعالى: [بسم الله الرحمن الرحيم]، فالقرآن كله كأنه تبيان لهذه الآية، ومعلوم كيف جلس الإمام علي عليه السلام من أول الليل وحتى الفجر مع ابن عباس حيث بين له الحرف الأول من [بسم الله]، ثم قال له: لو زادنا الليل لزدنا^١. ولعل مثل القرآن كمثل الإنسان، حيث كل الإنسان يُختصر في خلية واحدة من خلاياه، وهي التي تحتوي على كل ما في الجسم من تفاصيل، وكذلك الكلمة الواحدة من القرآن تحتوي على كل القرآن، وعلى العالم المتدبر في القرآن أن يستخرج هذه الحقائق، كما فعل ذلك الإمام علي عليه السلام في باء [بسم الله].

لذلك علينا أن لا تقتصر على الآية المباشرة، إنما لا بد أن نتبين ما يحيط بها من حقائق أخرى من سائر الآيات القرآنية، وكلما عجزنا عن الوصول إلى الحقائق من الأدلة الخاصة لا بد أن نحاول الرجوع إلى الأصول العامة، لأنها تشكل حكمة الخلق وحكمة الأحكام، فتكون نوراً وبصيرة للإنسان.

وخلاصة القول: إنَّ فهم الأحكام متعلق بفهم الدين كاملاً، وفهم الدين يتحقق من خلال فهم القرآن الكريم، من هنا فإنَّ التفاوت



بين العلماء في درجة استنباطهم وإدراكهم للأحكام، إنما يعود لمقدار فهمهم الشامل للدين، وليس للأدلة الموجودة في بطون الكتب - مثلاً - والتي يستطيع الجميع أن يقرأها، إنما الأمر مرتبط بفهم الأمور العامة وما هو مرتبط بالدليل من حكم، وهذا من اختصاص من أوتي العلم والفقه والبصيرة.



٢- الإمامة والبيت الحرام

﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ * وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا يَتِي لِلطَّاغِيَيْنَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ١﴾

لماذا الحديث عن إبراهيم؟

لماذا الحديث عن الحج يبدأ بذكر إبراهيم النبي ﷺ: [وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ]؟
لعل في ذلك أكثر من رسالة، منها:



تأكيد كرامة الإنسان الحُجَّة وهو محور هذه الخليفة.
لأن الله تعالى أراد منا أن نبتغي إليه الوسيلة، والأنبياء هم الوسيلة
إلى الله تعالى، وولاية الله تعالى تتحقق بولايتهم، ومن يتكبر عليهم ولا
يسلم لهم أمره يكون مصيره كمصير فرعون وقارون ومن قبلهم إبليس
حيث تكبروا على من اختارهم الله لأمره.
ربنا سبحانه أعطى إبراهيم ما أعطاه ولكن بعد أن ابتلاه وتجاوز
الابتلاء بنجاح حتى وصل مقاماً عالياً فاختره الله من بين عباده.

الإمامة.. من الله

لذلك فإن الله خاطب عبده إبراهيم و﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ
إِمَامًا﴾.

فالإمامة جعلٌ من الله تعالى، ولا دَخَلَ لأحد فيها، ولا بد من
التسليم مطلقاً للإمام لأنه تنصيب واختيار من الله.
ولما فهم إبراهيم عليه السلام حقيقة هذه النعمة سألها من الله تعالى لذريته:
﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾؟ ولكن الله أبى أن تكون إلا لمن كان في خط
الإيمان ولم يقترب الظلم بأي شكل من الأشكال، فكان الرد من الله
تعالى ف: ﴿قَالَ لَا يَبَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.



بين حرمة الإمامة وحرمة الكعبة

بعد أن كان الحديث عن المؤمن والذي تمثل بالنبي ابراهيم عليه السلام يأتي الحديث عن الكعبة: **﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾**، ولكن لماذا الحديث عن المؤمن (النبي) قبل الحديث عن الكعبة؟ ذلك لأن المؤمن أعظم حرمة من الكعبة كما ورد في أحاديث أهل البيت عليهم السلام. والكعبة في حقيقتها أحجار مبنية، ولكن الله تعالى جعل القلوب تهوي إليها وجعل فيها الأمن: **﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾**، وهذا الأمن عام يشمل كل الأبعاد وليس منحصرًا بالأمن التشريعي كما يرى البعض، فعلى مر التاريخ كانت الكعبة أمناً لسكانها، وهي أمان حتى للطير، هذا من الناحية الغيبية والمعنوية. أما من الناحية المادية فإن أرض الكعبة أو أرض مكة تمثل مركز ثقل الأرض، كما يقال.

وتكرماً لهذا النبي الإمام أمرنا الله تعالى بالصلاة عند مقامه:

﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

فالصلاة لله تعالى، ولكن مكانها عند مقام إبراهيم عليه السلام، أي من الباب الذي يريده الله تعالى المتمثل بالإمامة والوسيلة، والظاهر أن

١- جاء في الحديث الشريف عن المعصومين: (حُرْمَةُ النَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِ أَكْبَرُ مِنْ حُرْمَةِ الْبَيْتِ) [وسائل الشيعة، ج ١٤، ص ٥٣٨].



الصلاة هنا أوسع من معناها الخاص، إنما هي بمعنى الدعاء والتقرب إلى الله تعالى بسائر أوجه العبادة.

تطهير البيت الحرام

﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ
وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

العهد من الميثاق، فأخذ الله تعالى عهداً على إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يطهرا بيته الحرام، وبالطبع ليس المقصود هو التطهير المادي فحسب، إنما الأهم من ذلك التطهير المعنوي، أي تطهير البيت من كل شيء خاطئ من الأفكار الضالة وسائر ما هو مرتبط بالشرك والحزبيات الضيقة وما أشبهه.

وتطهير البيت يكون من أجل الطائفين ثم العاكفين ثم الركع السجود، وهذا يدل على أن الطواف بالبيت أهم إذا دخل المؤمن في المسجد الحرام، ثم الاعتكاف، وأخيراً الركوع والسجود، وهما ليسا مخصوصين بالصلاة، إنما الإنسان المؤمن بالخيار - بشكل عام - في الاتيان بالركوع أو السجود متى ما شاء.



٣- عن مكة وشعيرة الحج

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ
مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ
كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
* وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ
مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ
وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ
أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^١.

بصائر عدّة نستفيدها من هذه المجموعة من الآيات في سورة البقرة،

نشير إلى أهمها:

١- سورة البقرة، الآية: ١٢٦-١٢٨.



البصيرة الأولى: قيمة الأمن

يُقصد من الأمن تارةً سلامة الجسم، وأخرى سلامة المجتمع، وثالثةً يراد به الأمن العالمي بين الناس جميعاً، فمن أين وكيف يبدأ الأمن العالمي؟

إنما يكون بردم فجوة الخلافات بين الناس، والخلاف بين البشر قد يكون من اختلاف رؤيتهم تجاه الأمور، أ واختلاف مصالحهم، أ وبسبب التحيزات والتكتلات العصبية بينهم، ولا بد من البحث عن حلول جذرية لهذه الاختلافات.

ونستفيد علاج تلك الأسباب من قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^١.

أما علاج اختلافهم في الرؤية، فإنما يكون من خلال التلاقي والتحاور المستمر بينهم، للوصول إلى فهم وتقارب الرؤى المختلفة، لأن اختلاف مواقع البشر _ حتى في الأسرة الواحدة _ قد يخلق اختلافاً في رؤيتهم للقضايا، فبالتعارف يكون الحل.

وعلاج اختلاف المصالح يكون من خلال التعاون الناشئ من



التعارف، فإذا تعاون الناس تحققت مصالحهم جميعاً.
وأما الاختلافات النابعة من العصبية، فهي بحاجة إلى تطهير
النفوس، والذي يتحقق من خلال الارتباط بالله سبحانه والتعالي عن
الأنانيات الضيقة.

ولتحقيق الأمن في هذه المستويات، فإن الناس بحاجة إلى موقع
يجتمعون فيه ويتباحثون فيه عن قضاياهم ولا سيما المصرية، ول
وفعلوا ذلك لكان ذلك مؤثراً إيجابياً في إرساء السلام العالمي، واقامة
الأمن الدولي، وه ومكانٌ موجودٌ بالفعل في الإسلام، حيث جعل
الله سبحانه البيت الحرام مثابةً للناس - كما أشرنا في بحثٍ سابق -
يجتمعون فيه من كل أصقاع الأرض، ويختلفون إليه بكل اختلافاتهم
فيجتمعون ويلتقون ببعضهم البعض، فيعبدون الله سبحانه ويشهدون
منافع لهم^١، ويكون لهذه اللقاءات اثرٌ في احياء روح الأمة الإسلامية
وردم الفجوات فيما بينها.

وكما الحج، كذلك سائر التجمعات الإيمانية كالعمرة وزيارات
مراقد أهل البيت عليه السلام.

ولو عرف المسلمون هذه الحكمة من حكم الحج ووعوها بشكلٍ

١- ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ [سورة الحج، الآية: ٢٨].



أفضل، استطاعوا أن يستفيدوا منه في علاج قضاياهم بشكل أكبر.
الأمن أو الطعام؟

الأمن حاجة من حاجات الإنسان الهامة، وقد هيا الله سبحانه
أمن أهل مكة، وهناك حاجة أخرى هي الحاجة إلى الطعام، والتي
أشار الرب سبحانه إليها في سورة قريش: ﴿لِيلَافِ قُرَيْشٍ *
إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ *
الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^١.

ولكن أيّة الحاجتين أهم، الأمن أم الطعام؟ ففي وقتٍ نجد تقديم
سورة قريش للطعام، قدّم ابراهيم عليه السلام الأمن في دعائه؟
يمكن أن يقال: إن سورة قريش جاءت بعد سورة الفيل، والتي
ذكرت تحقيق الله سبحانه لأمن مكة عبر ارسال طير الأبايل، كما
يمكن أن يكون الأمر مختلفاً بحسب المستفيد، فقد تكون الحاجة الى
الطعام مقدمة لدى الفرد، بينما الأمن مقدّم عند المجتمع بشكلٍ عام.
ومن هنا طلب ابراهيم عليه السلام أن يجعل الرب هذا البلد (مكة) آمناً،
وفي التعبير بالبلد إشارة إلى توقّر الأنظمة الإلهية فيه، إذ أن تعبير
القرآن الكريم عن التجمعات البشرية يكون عادةً بـ«القرية» إلا إذا



توفرت فيها شروطٌ تؤهلها لتكون تلك البقعة «بلداً».

الأمن مقدمة للثمرات

إن توافر الأمن في بلدٍ مقدمةٌ لجذب الثمرات إليه، والثمرات هي نتاج الأشياء، فالتمر ثمر النخل، وهكذا سائر الثمار، وقد يكون الثمر مادياً كما يمكن أن يكون معنوياً، ومن هنا جاء في تفسير الآية: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ عن أبي عبد الله عليه السلام: [يَعْنِي مِنْ ثَمَرَاتِ الْقُلُوبِ، أَيْ حَبِّهِمْ إِلَى النَّاسِ لِيَأْتُوا إِلَيْهِمْ وَيَعُودُوا]^١.

البصيرة الثانية: التكامل بين العمل والروح

هناك تفاعلٌ بين العمل المادي وبين الروح المعنوية، فالطعام الممزوج بذكر الله سبحانه تهيئَةً وأكلاً، يختلف عنه إذا امتزج بالله والمعاصي. ومن هنا نجد أن إبراهيم عليه السلام يقوم برفع القواعد من البيت مشفوعاً بالدعاء وذكر الله سبحانه، فكان بناؤه للبيت بروح إيمانيةٍ عالية، وكلما كان الخلوص أكثر كان العمل أذكى وأدوم، يقول الله سبحانه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.



البصيرة الثالثة: بين الشعور بالعجب والتقصير

إذا عمل المرء عملاً صالحاً، فقد يساوره شعوران مختلفان:

الأول: الشعور بالعجب بأداء العمل الصالح.

الثاني: الشعور بالتقصير تجاه الله سبحانه.

ففي وقتٍ يكون الشعور الأول شيطانياً، فإن المؤمنين المخلصين يستشعرون الشعور الثاني عند عملهم في سبيل الله، ولذلك فإنهم يسألون الله سبحانه أن يتقبل عملهم، لأنه تعالى لا يتقبل إلا من المتقين.



E - صبغة الإسلام في الإمام والأمة

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^١.

بصائر عدّة تحويها هذه الآيات المباركة، نشير إلى بعضها:

الأولى: إبراهيم عليه السلام قدوة المسلمين

الإنسان أكبر مما يتصور - بإذن الله تعالى - ولكن البعض من

١ - سورة البقرة، الآية: ١٢٧-١٢٩.



الناس يحدد نفسه بحدود ضيقة من مال وأهل ودنيا..! بينما نجد النبي إبراهيم عليه السلام ذلك النبي العظيم كان له طموحٌ عظيمٌ وهو التفكير في الأمة، فلم يفكر في حدود نفسه وحسب إنما كان يفكر بامتداداته ليشمل أمة بكاملها، فلم لا نفتدي بهذا النبي العظيم؟

والله تعالى كرم الإنسان وأراد له مقاماً عالياً ومهد له الطريق لذلك المقام، فلماذا يحبس نفسه بأطر ضيقة وحاجات فانية؟

بعد أن أكمل إبراهيم النبي وولده اسماعيل عليه السلام بناء البيت الحرام سأل الله تعالى أن يتقبل منهما عملهما، ثم بعد ذلك دعوا الله بهذه الكلمات: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾، فما المقصود من الإسلام؟

والملاحظ في سورة الحجرات أن ربنا سبحانه قد هَرَّ الأعراب حين قالوا: (آمَنَّا)، فقال ردّاً عليهم: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾^١.

أما إبراهيم وإسماعيل عليه السلام فإنهما سألوا الله تعالى أن يجعلهما مسلمين له، فما هو الإسلام؟ وهل بينه وبين الإيمان فرق؟ لم يكن إسلام الأعراب إلا ظاهراً، أما الإسلام الحقيقي فهو التسليم



للّٰه تعالى في كل أمر، فيخرج الإنسان من ذاته وأناياته وحزبياته وانتماءاته ويقر بالعبودية لله والتسليم له مطلقاً، وهذه درجة عالية لا تُنال إلا بتوفيق الله، ولذلك فإن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام سألا الله تعالى هذه الدرجة إذ قالوا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾. ومن هنا، فإن الذين ينتمون إلى إبراهيم النبي عليه السلام، ولكنهم لا يعرفون من الإسلام شيئاً وحقيقته، هؤلاء يجب أن يجددوا النظر في انتمائهم، لأن حقيقة الدين الإبراهيمي الإسلام والتسليم، وما دين النبي موسى والنبي عيسى والنبي محمد عليهم السلام، إلا دينٌ واحد، إذ كلهم يدعون إلى الإسلام وحقيقته، وما عدا هذا يكون باطلاً وبعيداً عن حقيقة الإبراهيمية.

الثانية: قيمتان أساسيتان في النظام الاجتماعي

- ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ﴾

بعد أن حقق النبيان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام الإسلام في نفسيهما من الانقياد والخضوع المطلق لأمر الله، فإنهما تطلعا لامتداد هذا الهدف المبارك في أمة مسلمة.

هناك قيمتان تجمعان الناس في هذه الأرض.



أما الأولى فهي إلهية، متمثلة بالنظام الديني الإلهي والإيماني، فالإيمان هو المحور في هذا النظام. بينما الثانية مادية، متمثلة بالنظام الاجتماعي الطبيعي المتمثل بالعلاقات الأسرية، هذا النظام الذي قد أوجده الله تعالى في الكثير من أصناف خلقه.

ويبدو أن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام سألا الله سبحانه الأمرين معاً، فهما لم يقلوا: واجعل أمة مسلمة تتبعنا، إنما قالوا: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، أي أنهما طلبا من الله تعالى إمتداد القيمة الإلهية في أبنائهم لتكوّن منهم أمة، فالذرية شيء والأمة شيء آخر، واجتماعهما إلى بعض تكون النتيجة أمة الإسلام، أمة النبي إبراهيم عليه السلام.

الثالثة: الأمة وأبرز سماتها

الأمة هي المجموعة البشرية التي تتبع إماماً لها، وصفة هذه الأمة التسليم لله تعالى ﴿أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ﴾، وهنا تأكيدٌ على نقطة مهمة، حيث إنّ البشر يُفْتَنون بمدى ارتباطهم بالمادة والدنيا أو إيمانهم بالله تعالى وبالدين وبالقيم السامية، وهنا الابتلاء والمفارقة الكبيرة بين أمة مسلمة أو غير مسلمة.

- ﴿وَأَرَانَا مَنَاسِكَتًا﴾



المناسك جمع (منسك) وهي طريقة العبادة، حيث سأل ابراهيم وولده من الله تعالى وضوح الرؤية في كيفية العبادة، والآيات التالية توضح ذلك، بالإضافة إلى مسألتهما التوبة من الله سبحانه:

- ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

ولكن لماذا سؤال التوبة؟

كلما زادت معرفة الإنسان بأسماء الله وقوته وجبروته كلما تضاءلت في داخله نفسه وعمله، فمهما قدّم لله تعالى لا يرى أنه قد عمل شيئاً، فشعور التقصير يملأ نفسه، فإبراهيم عليه السلام مع كل ما تحمّله من صعوبات هو وأهله في ذلك الوادي الذي لم يكن فيه زرع، وقيامه هو وابنه اسماعيل عليه السلام ببناء البيت الحرام، وقد تجشّما عناء الاتيان بتلك الصخور في تلك المنطقة الجبلية الوعرة، مع ذلك كله يقول وولده: ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا﴾، وهاتان الكلمتان تعبران عن مدى الإحساس بالتقصير والحاجة إلى رحمة الله، ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

ثم بعد ذلك سألا الله تعالى المزيد من النعم:

- ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾

نبينا الأكرم محمد ﷺ يقول: ﴿أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ



عَلَيْهِ السَّلَامُ،^١ وكم هي الفاصلة بين النبي إبراهيم عليه السلام وبين النبي محمد ﷺ؟ فرغم المسافة الزمنية بين النبي إبراهيم وبين النبي المصطفى، ولكن الله تعالى استجاب دعوة إبراهيم إذ بعث في أمته رسولاً منهم.

ما هو دور الرسول؟

أولاً: **﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾**

الدعاة إلى الله يدعون إلى الله، ولكن هذه الدعوة ليست من أفكارهم وأهوائهم وثقافتهم، إنما تكون وفق آيات الله تبارك وتعالى. ولذلك ينبغي أن نعرف أن وسيلة الدعوة إلى الله تعالى هي تلاوة آياته على البشر، أما أن نفتش عن الأفكار الفلسفية والصوفية فنأخذ من اليمين والشمال ثم عبر هذه الأفكار نحاول أن نوجه الناس إلى الله، فإن هذا أمر غريب وبعيد.

وبعد تلاوة الكتاب، ثم ماذا؟

ثانياً: **﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾**

الدور الآخر للنبي هو تبيان وتوضيح وتعليم الآيات للناس. قالوا:



إن الكتاب هو القرآن، وأما الحكمة فإنها الشريعة. ولكن يمكن القول: إن الكتاب هو ثوابت الشريعة، أما الحكمة فهي متغيرات الشريعة التي تتغير مع الزمن، فالنبي ﷺ يبين أولاً الحقائق الثابتة الواضحة، ثم يبين تفاصيلها ومصاديقها وتأويلاتها على الواقع، وكذلك كان دور أهل بيته عليه السلام، وينبغي على العلماء أن يقوموا بذات الدور أيضاً، وبعد تعليم الكتاب والحكمة، يأتي دور التزكية:

ثالثاً: ﴿وَيَزَكِّيهِمْ﴾

الدور الثالث الذي يقوم به النبي في الأمة هو تزكية الناس وتربيتهم، وهذا دور حساس ومفصلي، ذلك لأن استقامة سلوك الناس فيما بينهم مرتبط بمدى تحقق هذا الأمر، فلا بد من تطهير النفوس وتركيتها وتربيتها لكي لا يكون المجتمع مليئاً بالأمراض النفسية والتكالب على الدنيا والتصارع فيما بين الناس.

- ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

حكمة الله تعالى تتجلى في شرائعه، وعزته تتجلى في قوته وقدرته على تطبيق تلك الشرائع.



٥ - لا تموتن إلا وأنتم مسلمون

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^١



في دعاء وسلوك ابراهيم النبي ﷺ بصائر عدة نشير اليها في ما يلي:

البصيرة الأولى: العمل الصالح والتوبة إلى الله

مما يدفع الإنسان نحو العمل الصالح اخطاؤه السابقة، ذلك لأنه عند ارتكاب الخطأ تراه يؤنّب نفسه إذا كان مسلماً - وهذا من الإيمان - فيمتلئ شعوراً بالندم، وحينئذ يكون أمامه طريقان:

الطريق الأول: اليأس من صلاح نفسه، وهذا طريق خطير، لأن اليأس بذاته ذنب عظيم. يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^١.

الطريق الثاني: الإنابة إلى الله سبحانه وإصلاح ما فات بالعمل الصالح، فكلما وقع الإنسان في خطأ أو خطيئة لا بد أن يستشعر أن كفارة ذلك الخطأ هو تقديم المزيد من العمل الصالح، ف﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾^٢ كما قال الله تعالى في كتابه الكريم، ولأن الله تعالى يوم القيامة يبدل السيئات إلى حسنات للذين كانوا يعملون الصالحات.

١- سورة الزمر، الآية: ٥٣.

٢- سورة هود، الآية: ١١٤.



ومن هنا نجد أن النبي إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام طلبا من الله التوبة وهما يقومان بتشييد البيت: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^١.

البصيرة الثانية: دور الرسول في الأمة

ثم قال الله سبحانه: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

فهناك جملة من الأدوار الهامة للرسول تضمنها دعاء إبراهيم عليه السلام:

أولاً: تلاوة الآيات

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾

والتلاوة تعني أن يقرأ الإنسان الكلمة تلو الكلمة، والآية تلو الآية، فمجموعة الآيات المتتالية تسمى تلاوة، أي تترى الآيات بعضها بعد بعض. ونستفيد من ذلك: أن على الداعية إلى الله أن تكون دعوته إلى الله عبر القرآن الكريم، فلا يجوز للداعية إلى الله أن يتلو على الناس غير



ما أنزل الله ليدعوهم إليه سبحانه، فليس في كتاب الله نقص لتكون الحاجة إلى غيره وإلى أفكارٍ أجنبيةٍ عنه.

والقرآن يُفهم بالقرآن، وبأهل البيت عليهم السلام، ولا يمكن أن يُفهم بنظريات أخرى كما قد يرى البعض أنه لا يُفهم إلا من خلال النظرية الماركسية مثلاً..!

كيف يتلى القرآن؟

من تجليات تلاوة القرآن، أن يكون القرآن الكريم مرآة صافية لمعرفة الواقع الخارجي، فتكون آياته تبياناً لحكم الواقع، وحكمة عملية تجاهه، وبذلك تكون آيات الكتاب حاضرةً في كل واقعة، فصاحب المال تُقرأ عليه آيات الإنفاق والزكاة، والظالم تُقرأ له آيات النهي عن الظلم، وصاحب المنصب يؤمر بالعدل والإنصاف، وهكذا تُتلى كل آيةٍ بحسب الموقع المناسب لها، لتكون علاجاً للواقعة، وبياناً لحكم الله فيها.

فقراءة الآية في الموقع والوقت المناسبين لها أثرها البالغ، ولعل هذا

مما نستفيد منه معنى ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾.



ثانياً: تعليم الكتاب والحكمة

﴿وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

فما هو المقصود منهما؟

يبدو أن الكتاب هو منظومة الحقائق القرآنية، والتي ندرسها اليوم في كتب الفقه، وهي موجودة في الآداب وفي السنن وفي الأخلاق والمعارف الأولية أيضاً، كل هذه حقائق قرآنية وهي من الكتاب. وأما الحكمة فمن الحكم، وفي القرآن الكريم العشرات من الآيات حول الحكم: ﴿وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾^١، فما هو الحكم؟

من الناحية اللغوية: الحكم هو الكلمة القاطعة، ويقال للشيء القوي محكماً أيضاً، وإذا الناس تشابكوا فيما بينهم واختلفوا فهم بحاجة إلى قطع الخلاف وفض النزاع بكلمة قاطعة، والكلمة القاطعة تمثل الحكم، الحكم بالقسط والحكم بالعدل.

أما الخلاف فيكون في مصاديق الآيات، فالقسط - مثلاً - واجب: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^٢، والعدل واجب: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ

١- سورة المائدة، الآية: ٤٩.

٢- سورة الحجرات، الآية: ٩.



أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ^١، وكذلك الإحسان: **﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ**

وَالْإِحْسَانِ﴾ ^٢، وهذا لا خلاف فيه، إنما الاختلاف في تطبيقاتها

وتأويلاتها على الواقع، وهنا يأتي الحكم عبر تأويل الكتاب وتطبيقه

على المواقع والموارد الخاصة.

ولعل مفهوم الحكمة من هذا البعد، فهي مستوحاة من الحكم،

وتعني معرفة الكيفية في تطبيق الأحكام الكلية على الموارد الجزئية.

ولعل الاستفتاء أو الفتوى هما من هذا القبيل أيضاً، أي معرفة

الحقائق الكبرى المنطبقة على القضايا الخارجية المختلف فيها، وهذا

هو الدور الموكل إلى الفقهاء.

فالنبي ﷺ يعلم الحكمة، أي يبين كيفية الحكم، حيث الإرشاد

إلى موازين تطبيق الأحكام على الوقائع الخارجية.

واليوم توجد في العالم أنظمة حديثة، ويوجد فيها مشرّعون،

ومسؤولية المشرّع تصدير القانون، ولكن تطبيق القانون على الواقع

الخارجي يكون من مسؤوليّة القاضي، فالقاضي هو الذي يعتني

بتطبيق القانون العام على الموارد الخاصة.

وعادة يلحق الدستور بملاحظة أن القانون ينظر بقوانين أخرى،

١- سورة المائدة، الآية: ٨.

٢- سورة النحل، الآية: ٩٠.



فالقوانين بحاجة إلى لوائح قانونية مستوحاة منها في التطبيق، وهكذا القوانين والأحكام الكلية في الإسلام، لا بد من معرفة موارد تطبيقها الخاصة، وهذا دور الحكمة: ﴿وَيَعْلَمُهمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾^١.

ثالثاً: تزكية النفوس

﴿وَيُزَكِّيهمُ﴾

بما أن جزءاً من الحكمة يتصل بإرادة الإنسان ومدى ضبطه لحالاته النفسية، حيث يمكن للإنسان أن يبرّر أخطائه، أو يغيّر الأحكام عبر التفسيرات والتأويلات فيتبع ما تشابه منها، فمن أجل الوقوف أمام هذه الحالة النفسية فإن على الرسول مسؤولية أخرى، هي التزكية. فتعليم الكتاب أمرٌ والتزكية أمرٌ آخر، وليست التزكية مجرد إلقاء كلمات، إنما هي توجيهات وتوصيات مباشرة للإنسان، من أوامر ونواهي تهدف تهيئته وتربيته.

ولننظر كيف تعامل الإمام الباقر عليه السلام مع محمد ابن مسلم رضي الله عنه، الذي كان من الرواة الثقات عند الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام، وكان شيخاً في عشيرته في الكوفة، وكان رجلاً محترماً في قومه وكان موسراً، فلما زار الإمام الباقر عليه السلام قال له الإمام: (تواضع). فلما رجع إلى الكوفة



أخذ كمية من التمر وجلس أمام المسجد وصار يبيع التمر...! فجاء أصحابه وهم على عجب مما يرون، واعترضوا على طريقته هذه لانه كان شخصا جليلا في قومه وكان غنيا لا يحتاج الى هذه الطريقة من التكبّس. فقال: إن مولاي أمرني بأمر فلن أخالفه و لن أبرح حتى أبيع فأفرغ من بيع باقي هذه القوصرة^١.

ومن هنا نرى اهتمام علمائنا بهذا الأمر، فكان لدرس الأخلاق عند عالم كبير أهمية قصوى عند طلبة العلوم الدينية.

ثم يقول الله سبحانه: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. لعل العزة إشارة إلى الكتاب، والحكمة إشارة إلى الحكم.

البصيرة الثالثة: الرغبة عن دين إبراهيم سفاهة

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ الملة هي الطريقة، فملة إبراهيم عليه السلام طريقته، فمن يرغب عن هذه الملة إنما هو سفيه، والسفيه ذلك الذي يخسر نفسه ويعمل عملاً بخلاف مصلحته.

﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾

فإبراهيم عليه السلام قدوة حسنة فلماذا يتركها الإنسان ولا يقتدي بها؟



واصطفاء الله تعالى له من بين العباد أمر عظيم، فالذين يتمون ملتته وطريقته الملايين من البشر وعلى مر السنين، وهذا في الدنيا، وأعظم منه في الآخرة.

وفي هذا عبرة لنا بأن تكون بداياتنا ونهاياتنا كبدايات ونهايات النبي إبراهيم عليه السلام، وإلا ما الفائدة من بدايات حسنة وعاقبة سيئة ووخيمة؟!

البصيرة الرابعة: كيف اصطفى الله إبراهيم؟

متى أصبح إبراهيم عليه السلام في هذه القمة السامقة؟ وكيف؟

الجواب في الآية التالية، إذ يقول الله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

إنه أمر عجيب حقاً! فالنبي إبراهيم عليه السلام هو الذي سلم نفسه للنيران، وسلم ابنه للذبح، وسلم أهله وذريته إذ جعلهم في الصحراء، وسلم لله في كل شيء، ومع ذلك فإن الله تعالى يقول له: ﴿أَسْلِمْ﴾، لماذا؟

يبدو أن هناك سببين:

الأول: إن الله سبحانه يبين في كتابه الكريم وفي آيات عديدة أن الأنبياء عليهم السلام لم يكونوا آلهة، فمع كل عظمتهم وعلو مقامهم إلا أنهم لا



يزالون في مرتبة العبودية، وكلما كانت عبودية أحدهم أكبر كان مقامه عند الله أعلى، وهذا لنفي شبهة الألوهية عنهم.

الثاني: مهما ارتفع الإنسان مقاماً عالياً فإن مشكلة النفس الأمانة بالسوء حاضرة معه، وربنا يقول في موضع آخر: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾، فهذا النهي لا يكون مرة واحدة إنما هو نهي مستمر يتطلب جهاداً مستمراً حتى آخر لحظة من الدنيا، وهنا يعني الإسلام التوجه إلى الله تعالى في كل حركة من الزمن.

وهكذا الأمر بالنسبة لكل الناس، فكلما اقتربنا من الله تعالى وازددنا تسليماً له ومخالفة لأهوائنا كلما ازددنا قوة وإرادة وإيماناً. البصيرة الخامسة: امتداد التسليم في ذرية إبراهيم

﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾

هناك فرق بين كلمة (أوصى) وكلمة (وصّى)، فالأولى تعني الوصية مرة واحدة، أما الثانية فهي تعني المرة بعد الأخرى. فبماذا أوصاهم؟

﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ﴾



فالدين الذي عندكم هو صفوة الحقائق وصفوة الشرائع.

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

لا بد للإنسان المؤمن أن يحرص على إسلامه لله ما زال في الدنيا، وأن لا يعدل عنه إلى ما سواه، والأمر خطير للغاية إذ تكون عاقبة السوء بدلاً من العاقبة الحسنة مع الإسلام، وربنا سبحانه يقول: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾^١، فإذا سلم الإنسان المؤمن روحه لملك الموت حينها تنتهي الفتنة وينتهي الاختبار، فيكون ذلك سروره إن مات على الإيمان، وما لم تأت تلك اللحظة فلا بد من المكابدة والمجاهدة والاستقامة على هذا الطريق.



٦- لماذا تغيير القبلة إلى المسجد الحرام

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ
الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا
الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ
يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ
وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ
* قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا
فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا
وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ



مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ^١.

بين يدي الآيات

قبل أن نذكر البصائر المستوحاة من هذه المنظومة المباركة من الآيات الكريمة نتساءل:

ما هي العلاقة بين هذه الآيات التي تتمحور حول موضوع القبلة، والآيات التي سبقتها والتي تناولت موضوع النبي إبراهيم عليه السلام وبنائه للكعبة المشرفة مع ولده إسماعيل عليه السلام؟

قبل بيان ذلك لا بد من الإشارة إلى الآيات التي وردت بين هاتين المنظومتين من الآيات، حيث يبين الله لنا فيها شرطاً أساسياً من شروط الإيمان، إذ يتمثل في الإيمان بكل الحق وليس ببعضه دون البعض الآخر، حيث يقول سبحانه: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾^٢، فهذا هو

١- سورة البقرة، الآية: ١٤٢-١٤٤.

٢- سورة البقرة، الآية: ١٣٦.



الإسلام، الذي يعني عبادة الله سبحانه بإخلاص، والإيمان بكل الرسالات الإلهية من دون أيّ تفريقٍ بينها، وهذا درس عظيم. بعد بيان حقيقة العبادة وجوهرها المتمثل بابتغاء مرضاة الله، والكفر بالأنداد، والتعامل مع الوسائل على أنها من الممكن أن تتغير في أي وقت وعند اختلاف الظروف: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾^١، في وقتٍ يكون الأساس هو ما يأمر به الله تعالى، يأتي الحديث عن القبلة وسبب تغييرها.

من هنا، يمكن القول بأن الرابط بين منظومتي الآيات، يكمن في تحديد سمات الأمة الإسلامية، وبعبارةٍ أخرى: إن القرآن كتابٌ كامل، لا يدع زاوية مظلمة إلا ويسلط عليها الضوء في الموضوع الذي يتناوله، وحسبما يبدو - والله العالم - أن سورة البقرة جاءت لبيان شخصية الأمة، فأولى صفات هذه الأمة أنها تؤمن بالغيب وتوقن بالآخرة - كما في بدء السورة - ثم الحديث عن تمييز هذه الأمة عن الكفار والمنافقين، ثم بيان واجباتها وتمييزها عن اليهود والنصارى، ثم بيان تشريع القبلة، وهكذا فإن موضوع القبلة وتحويلها، يأتي ثمرةً لتلك الأمة التي أرادها إبراهيم عليه السلام ودعا ربّه أن يمكّنها في الأرض حين كان



يرفع القواعد من البيت.

أما البصائر التي نستفيدها من هذه الآيات الكريمة فهي:

البصيرة الأولى: لكي نمثل لأوامر الله

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾.

هناك طائفة من الناس لا يستوعبون أوامر الله ونواهيه، فيتخذون منها موقفاً سلبياً ويستشكلون عليها! وهؤلاء ينعتهم الله بالسفهاء: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾، أي الجهلاء من الناس الذين لا يفهمون، لأنهم لا يعرفون حكمة التشريع، ولا يدركون أن لكل أمة تشريعاً وظرفاً مختلفاً عن الأخرى، فقد جاء عيسى عليه السلام إلى اليهود ووجدهم قد أقبلوا على الدنيا وصاروا يعبدونها، فاختار حياة الزهد، والسياسة في الأرض، وعبادة الله تعالى، ودعوة الناس إلى الهدى، ونهيهم عن اللهث وراء الدنيا وزخارفها، وهذه كانت مرحلة معينة متناسبة مع حاجة البشر إلى ضخ الروح الإيمانية والزهد في الدنيا، بينما الإسلام دعا إلى التوازن بين الدنيا والآخرة، حيث دعا أتباعه قائلًا: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ



مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي
الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ^١.

وفي الردّ على السفهاء أمر الله تعالى رسوله أن:

﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ﴾.

فالسفهاء لا يفهمون حكمة الشريعة، فيعترضون عليها، ف
إنَّ حكمة الشريعة تقتضي أن تتغير الأحكام حسب الظروف،
الأمر الذي لا يفهمه السفهاء، فحتى الصلاة - على سبيل المثال
- وهي صفة المؤمن ومعجازه وهي ذكر لله تعالى، تتغير احكامها
حسب تغير الظروف، فإن لم يجد الإنسان الماء يصلّيها بالتميم،
وإذا قطع مسافة السفر يصلّيها قصراً، وهكذا في الحرب يصلّي
صلاة الخوف، فحتى الصلاة تتغير طريقة أدائها بحسب الأحوال، لأنَّ
الأساس هو الحق والذي يأمر به الله تعالى، وليس هناك حالة واحدة
ثابتة في كل الظروف.

وإدراك هذه البصيرة في غاية الأهمية، وهذه بعض الأمثلة الظاهرة،
وهناك أمثلة خفية في حياة الإنسان لا بد أن يدركها أيضاً، كأن يخيّر



الإنسان بين البقاء هنا أو الذهاب لمكان آخر، فهنا جماعته وأهله بينما هناك مجرد دور رسالي لا بد أن يقوم به، فمعيار الاختيار يجب أن يكون وفق ما يريد الله وليس وفق ما تحوى النفس وتميل إليه.

البصيرة الثانية: الأمة الوسط

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾

ما معنى الوسط؟

قل: معنى (وسطاً) أي خياراً، وقيل: عدولاً، وهناك أقوال مختلفة لكنها في النهاية ترجع إلى شيء واحد وهو أنَّ ما يأمر به العقل والشرع يكون هو الوسط، والإسلام هو الوسط من بين الأديان. والأمة تعني مجموعة من البشر يأتون بإمام، فالأمة ليست عصابة ولا حزباً ولا عنصراً ولا قبيلة ولا قومية ولا أي شيء آخر، إنما هي أمة تقتدي بإمام، فمن ينتمي إلى هذا الخط فهو منها وإن كان في آخر نقطة من الأرض، وإلا فلا ولو كان في قلبها من حيث الجغرافيا أو الانتماء النسبي.

فالوسطية تعني عدم الميل يميناً أو شمالاً، فلا روحانية مفرطة كما



المسيح، ولا مادية قاتلة كما اليهود، فإذا كانت الأمم تتفرق بسبب الميولات المتعددة فإن الإسلام بريء من ذلك، فهو الحق المحض والعدل والقسط، ولا بد أن يحذف عنها سائر الميولات البشرية لتبقى مستقيمة على حالتها الوسطية بلا إفراط أو تفريط.

البصيرة الثالثة: مسؤولية الأمة الإسلامية

ولهذه الأمة الوسط صفةً أخرى، وهي الشهادة، فهي القدوة لسائر الأمم، فمن أراد أن يعرف الحق يجده متمثلاً بها، لأن أبناءها لا يميلون إلى اليمين أو اليسار، إنما معيارهم الحق:

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ

شَهِيداً﴾

ويُخطئ من يتصور أن الأمة الإسلامية لها مميزات من دون مسؤوليات، كلا، إنما عليها مسؤولية الهيمنة على الساحة وقيادتها، بدعوة سائر الناس إلى العدل والوسطية.

وما معنى الشهيد هنا؟

نحن نطلق كلمة (الشهيد) على من يُقتل في سبيل الله، ولكن في القرآن الكريم ترد هذه الكلمة بمعنى القائد والموجه، ولذلك يقول ربنا



سبحانه: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ

شَهِيداً﴾. فإذا أردنا أن نعرف مسؤوليتنا كأمة وسط تجاه الآخرين فلا

بد أن نعرف برامج النبي ومناهجه بالنسبة للأمة، فكما أن النبي ﷺ

يتلو على الأمة الآيات ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، كذلك

علينا أن نقوم بنفس المهام والمسؤوليات، وبنفس الرسالة تجاه البشرية:

﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾.

فالأمة الإسلامية ليست أمة منطوية على نفسها، كلا إنما من

سماتها التصدي والمقاومة والجهاد، وربنا سبحانه حينما يقول: ﴿يَا

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ لا يكتفي

بذلك، إنما يضيف: ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾،

لفلاح المؤمن ثلاثة شروط: التقوى، واتخاذ الوسيلة، والجهاد في سبيل

الله.

من هنا نعرف أن أتباع القبلة إنما هو ظاهر لواقع، وإطار لمحتوى،

إذ يتمثل المحتوى بتشكيل الأمة ذات الشخصية المتميزة التي تؤمن

بكل رسالات الله وتتبعها، وذات الصبغة الإلهية التي يقول ربنا سبحانه

عنها: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ



عَابِدُونَ ﴿١﴾

البصيرة الرابعة: فلسفة تغيير القبلة

لماذا جُعِلَت القبلة ابتداءً إلى البيت المقدس؟ هل لأجل استمالة اليهود؟! كلا.

هل كان الله تعالى يريد أن يبيّن أن الأديان الالهية واحدة؟ ربما كذلك.

ولكن الأساس - كما يبدو - أن الله تعالى أمر بذلك لكي يتبلي الناس في ذلك الزمن، فمنهم المشركون الذين ما كانوا يرغبون ببيت المقدس، بسبب النظرة العنصرية، ومنهم المؤمنون حيث أراد الله أن يتبليهم، فاختلطت الأمور عليهم.

وصفوة القول هي أن على الإنسان في كل حال أن يطلب مرضاة الله حيثما تحققت، فإذا تطلّب الأمر جهاداً بالسيف، أو هجرةً في سبيل الله، أو التوجه الى بيت المقدس أو الى البيت الحرام، كان مستعداً لذلك، ولكل ما يأمر به الله تعالى من أمر، فيكون ممتثلًا له من دون أن يكون في صدره حرج أو اعتراض.



ولذلك فإن الله تعالى في الآية الكريمة التي سبقت آيات القبلة يقول
 - وهي الوحيدة بهذا المفهوم - : ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ
 اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾^١، فعبادة الله هي الصبغة الرئيسية
 للمؤمن، ولون الإنسان لا يكون مسيحياً أو نصرانياً، ولا يسارياً أو
 يمينياً، إنما يكون لله تعالى وما يأمره به: ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾،
 فعبادة الله والخضوع له هي الصبغة المطلوبة.

ففتنة الإنسان في كثير من الأحيان أن يأمره الله تعالى بأمر يختلف
 عن الأمر الأول، فهو قد اعتاد على الأمر الأول فكيف يعدل عنه
 إلى الأمر الجديد؟! وهكذا يكون الامتحان الإلهي ولا بد للعبد من
 التسليم.

ولذلك ربنا سبحانه يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ
 عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾.
 حسب التتبع التاريخي لم يُعلم من الذي انقلب على عقبيه هل كانوا
 من المشركين أم من المسلمين؟

﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾

العملية ليست بسيطة إنما هي امتحان عسير وكبير، ولا يفلح في



هذا الامتحان إلا صاحب القلب الذي كان خاشعاً لله تعالى بشكل كامل، فيسهل عليه التسليم لأمر الله، فيغيّر اتجاه قلبته حسب الأمر الذي يبتغيه الرب سبحانه.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾

فُسِّرَ الإيمان هنا بالصلاة، أي أن الله تعالى يحفظ لكم الصلاة التي صليتموها تجاه بيت المقدس.

لكن لماذا لم يقل صلاتكم، بل قال: ﴿إِيمَانَكُمْ﴾؟

الجواب: الصلاة التي كانت لله تعالى لا تضيع، أما الصلاة التي كانت رياء ومكاءً وتصدية فهي ضائعة بالطبع، ولذلك فإن الله تعالى ما قال صلاتكم إنما قال: ﴿إِيمَانَكُمْ﴾ لأنَّ جوهر الصلاة هو الإيمان، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

البصيرة الخامسة: تحديد القبلة

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً

تَرْضَاهَا﴾

دعوة الأنبياء مستجابة، ولكنهم مع ذلك يحرصون على انتظار أمر الله تعالى واتباعه، فالنبي إبراهيم عليه السلام وهو في المنجنيق ما دعا الله



تعالى أن يخلصه إنما كان ينتظر صدور الأمر من الله العزيز العليم. كذلك النبي محمد ﷺ كان يرغب أن تكون أمته أمة واضحة المعالم، ولكنه ما كان يطلب ذلك من الله، ربنا سبحانه يخاطبه قائلاً: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ حيث كان يتقلب وجه النبي في السماء وهو ينتظر أمر الله تعالى.

وهذه صفة أولياء الله العظام، فانهم لا يفعلون أمراً من أنفسهم، فهذا إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام لما اقتاده القوم إلى المسجد لكي يبايع الخليفة في تلك الحادثة العجيبة، وكان سلمان الحمدي رضوان الله عليه واقفاً وينظر فقال: «أتصنع ذا بهذا؟ والله لو أقسم على الله لانتبطت ذه على ذه»، ولكن أمير المؤمنين عليه السلام كان قد سلم أمره إلى الله تعالى مهما كان!.

فالله تعالى يخبر النبي بهذه الآية أننا نرى تقلب وجهك في السماء ونعلم ما يدور في نفسك ولكن ذلك إنما يكون في الوقت المناسب. ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾

كان الحديث في السياق عن الكعبة، أما هنا فعن المسجد الحرام،



فهل المعنى واحد؟ أو أن المسجد الحرام شُرِفَ بالكعبة؟
لا نعلم سبب تبدل اللهجة، لعل التوجه إلى الكعبة بالذات يكون
أمراً معسوراً على المسلمين، فقال تعالى:

﴿شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

أي باتجاهه.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ

وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾

أهل الكتاب يعلمون أن هذه هي القبلة الحقيقية، أما بيت المقدس
إنما كان قبلة وقتية، وقد انتهى وقتها ليعود الأمر إلى الأصل.



٧ - شهادة الأمة الإسلامية على الأمم

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^١.

تحدثنا عن بعض جوانب هذه الآية فيما سبق، ولكننا نعود إليها لبيان بعض الاستلhamات الأخرى، فقد كثر حولها كلام المفسرين.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.



فماذا تعني شهادة الأمة على الناس؟

قال بعضٌ - وهم يستندون إلى رواياتٍ مأثورة - : إنَّ المراد من ﴿شَهَادَةٌ عَلَى النَّاسِ﴾ هم الأئمة لا جميع الأمة^١، ولذلك قُرئت الآية: [جعلناكم أئمة]^٢ لأنَّ مرتبة الشهادة مرتبةٌ عظيمة وعالية، ولا سيما حيث أن شهادتهم قد قُرئت بشهادة الرسول عليهم. ولكننا نرى أنَّ هذه القراءة هي قراءة تفسيرية لا أنَّ الآية نزلت هكذا، كما في قول الله سبحانه في سورة الفرقان: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾^٣ حيث قُرئت بالقراءة التفسيرية: (واجعل لنا من المتقين إماما).

وقال آخرون في معنى الأمة الوسط: إن الأمة هي العلامة الوسط التي يُقاس بها الحق ويُعرف، ذلك لأنَّ نهج الأمة هو الوسط بين المادية والرهبانية المفرطتين.

وهناك أقوال أخرى لسنا بصدد مناقشتها الآن.

وهنا نقدم بعض المقدمات ثم نبين بعض البصائر المستوحاة من الآية الكريمة لبيان معنى الشهادة في الأمة الإسلامية.

١- انظر: الكافي، ج ١، ص ١٩٠، باب (أن الأئمة شهداء الله عز وجل على خلقه).

٢- انظر: تفسير القمي، ج ١، ص ٦٣.

٣- سورة الفرقان، الآية: ٧٤.



١- شئنا أم أبينا فإنَّ المجتمع الإنساني على درجات: ﴿هُمَّ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾^١. فالدرجة العليا هم الأنبياء، ثم الائمة والصديقون، ثم الأولياء الأمثل فالأمثل، ثم الناس العاديون، وحينما نقول الناس فإننا نقولها بلحاظ الدرجات، ف قمة الناس هم الائمة ثم حواريوهم، ثم الناس العاديون الأفضل فالأفضل.

إذاً لا منافاة بين أن نقول أن المراد من الناس عامتهم أو أئمة من الناس، ولكن كلُّ بدرجة ونسبة مختلفة عن الآخر.

٢- نحن نجد تصريح الآيات القرآنية بضرورة أن يكون بعضنا شهيداً على البعض، إذ يقول ربنا سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^٢، وهذه الولاية فيما بين المؤمنين تتجلى في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وهذا أحد معاني الشهادة.

أما سائر البشر فهناك آيتان في القرآن الكريم وردت في تحديد تكليفنا تجاههم، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾^٣، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

١- سورة آل عمران، الآية: ١٦٣.

٢- سورة التوبة، الآية: ٧١.

٣- سورة النساء، الآية: ١٣٥.



الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ﴿١﴾، فما معنى القَوَّام بِالْقِسْط؟ معناه: أن تقوم أنت بالقسط وشم تأمر الناس به، وهذا ليس مخصوصاً تجاه الذين آمنوا، إنما هو عام بالنسبة إلى البشرية جمعاء، فإذا ذهب أحد المسلمين إلى مدينة نائية لغير المسلمين، فهل ستكون عليه مسؤولية تجاه الناس أم لا؟ وهل الآية الكريمة ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾، تشمل أم لا؟

بالتأكيد هو مأمور بإقامة القسط، ويجب عليه أن يقوم بالدفاع عن المظلوم أنى كان، وكما قال الإمام علي عليه السلام لولديه الحسن والحسين: **[كُونَا لِلظَّالِمِ حَصْماً وَلِلْمَظْلُومِ عَوْنًا]**، فما حدث في غزوة من قتل آلاف الأطفال والأبرياء من الناس، لا يمكن لإنسان مسلم أن يعرض بوجهه ولا يعترف بمسؤوليته تجاههم، فإنه هروبٌ عن دوره المأمور به من الله تعالى.

إذن فهناك مسؤولية تجاه كل الناس تقع على عاتق المسلمين، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾، ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾، ولعل هذا معنى الشهادة بما هو مطلوب من الإنسان المؤمن.



ولا تعني الشهادة مجرد القول: إِنَّ هذا على حق والآخر على باطل، إنما هذه درجة من درجات الشهادة، أما الدرجة الأخرى أن نقول لصاحب الحق أحسنت، وللمبطل أسأت، وندافع عن المظلوم وصاحب الحق، ونخاصم الظالم والجائر.

فالمسؤولية الملقاة على الرسول، على الأمة أن تقوم بها ولكن بدرجة أقل، فدور الرسول يتمثل بتلاوة الآيات والتزكية وتعليم الكتاب والحكمة، وهذا أيضاً دور كل إنسان مسلم، سواء بالنسبة إلى سائر المسلمين أو غيرهم من البشر.

وأساساً فإنَّ الشيء الذي جعل المسلمين أمةً راشدة عبر التاريخ - حسبما يبدو - أنهم كانوا يدافعون عن المظلومين، فكما أن الرسول شهيدٌ علينا نحن أيضاً ينبغي أن نتمثل دور هذه الشهادة بالنسبة إلى غيرنا، وهذه الشهادة على درجات كما أسلفنا.

التبعيض في أخذ الحقائق القرآنية

إذن، لا يجوز لنا أن نأخذ آية واحدة ونحاول أن نستخرج كل الحقائق منها، إنما نأخذ الحقائق منها ثم نعرضها على باقي الآيات القرآنية فنستفيد التفاصيل من الآيات الأخرى، فربنا سبحانه يقول:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ



أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ^١، وفي آية أخرى يقول: **﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾** ^٢، فما هي العدالة؟ نأخذها من آية أخرى. ما هو القسط؟ نأخذه من آية أخرى، فالمعاني المترتبة التفصيلية تؤخذ من القرآن غالباً بهذه الطريقة، وتفسير (الصراط المستقيم) مثال واضح على هذه الطريقة، حيث نجد التفصيل في سورة المائدة ^٣ وهكذا كثير من الآيات الأخرى نجد ترجماتها في آيات أخرى، ولذلك لا بد لنا من تلاوة القرآن كله ليلاً ونهاراً ونتدبر فيه ملياً، ولا نتخذه عضين، ولا نضرب بعضه ببعض الآخر.

فلا يصح لمن يتعامل مع القرآن أن يحدّد آياته الكريمة، فيقول: إن الآية نزلت في هذا الشأن وليس في شأن غيره! فهذا منهي عنه، لأن الآية الواحدة من الممكن أن نستفيد منها في مواضع متعددة وفي أكثر من استفادة، وكلها صحيحة، فلا بد أن تكون عندنا رؤية جامعة إلى التفاسير، وأهمها التفاسير التي وردت عن الأئمة عليهم السلام.

فعلى سبيل المثال، فيمن نزل قوله تعالى: **﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَصَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ**

١- سورة المائدة، الآية: ٨.

٢- سورة الحجرات، الآية: ٩.

٣- انظر الايتين ١٥ و١٦ من سورة المائدة.



مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا؟^١ نزل في حمزة الذي استشهد في أحد، والإمام علي عليه السلام الذي بقي ينتظر. وتنطبق أيضاً في حبيب ابن مظاهر ومسلم ابن عوسجة، فأحدهما استشهد والثاني بقي ينتظر الشهادة. وهكذا تنطبق الآية أيضاً في كل رجل مؤمن دافع عن الدين فاستشهد بينما صديقه لم يستشهد: **﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ﴾**، فالآية لها نزول وانطباقات متعددة، ولكن على درجات بالطبع. فلا يمكن أن نحصر الآية في نزولها الأول فتموت الآية مع انتهاء الحدث الذي نزلت فيه، إنما المفهوم واحد والمصاديق كثيرة.

علاقة شهادة الأمة بالحج

إنَّ آية شهادة المؤمنين على الناس ترتبط بالحج، ولكن كيف؟ لأنَّ المسلمين حين يجتمعون في مكان واحد، فإن بعضهم يكون شهيداً على البعض الآخر، فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وكذلك يكون بينهم تعليم الكتاب والحكمة والتزكية، هذا ليس في الحج فحسب وإنما أيضاً في الزيارات والتجمعات الإيمانية المختلفة،



فكل تجمع بين المسلمين هو فرصة مناسبة للفضيلة ونشر العلم.

دور المسلمين المهاجرين

من هنا فعلى المسلمين في بلاد المهجر أيضاً أن يثقوا بأنفسهم ويدعوا الناس إلى الحق وإلى الهدى، ولا يحدّدوا مسؤوليتهم تجاه المسلمين أمثالهم فقط، فهذه المسؤولية ثابتة ولا نقاش فيها، إنما لا بد أن يكونوا دعاءً إلى الإسلام ومؤيدين لدور الشهادة على سائر الناس. فالنظام الغربي اليوم بدأ يتهاوى وظهرت سوءاته للعيان، فلا بد للعالم من بديل، فهذه الحضارة - كما يسمّونها - أو هذه الجاهلية المتجددة في حالة السقوط والانهيار، ولذلك نحن كمسلمين لا بد أن نقدم للبشرية البديل الذي نعتقد لا بديل أعلى وأفضل منه وهو الإسلام.

ولو قمنا بهذا الدور وبالذات الذين هم في شرق الأرض وغربها من المسلمين، لو قاموا بدورهم ونشروا تعاليم الإسلام عند غير المسلمين وبالتي هي أحسن، لاستطاع الكثير من الناس أن يهتدوا إلى دين الحق، ولا داعي للانحزام، ولكن واثقين بما عندنا، ولا تحذعنا المظاهر التي تفتقر إلى المعنويات، فإن تأخرنا عنهم في بعض المستويات فلا



يدل ذلك على أننا متخلفون أبداً.

فقله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ ذو معاني مختلفة،

إذ الشهادة تأتي بمعنى معرفة الحق من الباطل، وكذلك بمعنى الدعوة إلى

الحق والنهي عن الباطل، وأيضاً أن نكون قوامين بالقسط بين الناس

بما آتانا الله من قدرة واستطاعة.



٨ - الصفا والمروة وحرمة المسجد الحرام

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتِ قِصَاصٌ
فَمَنْ غَتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا غَتَدَى عَلَيْكُمْ
وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ * وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ﴾^١.

نستهل الحديث ببصيرتين قرآنيتين:

البصيرة الأولى: الصفا والمروة من شعائر الله

القرآن الكريم ليس فقط كتاب أحكام، وإنما هو أيضاً كتاب



تزكية، وكتاب معارف أولية، وكتاب تحفيز للإنسان للعمل بالأحكام الشرعية، ولذلك نجد أن الآية الكريمة تأتي عن الحج، ثم بعدها تأتي آية في أسماء الله الحسنى، وثالثة عن التقوى، ورابعة في مشكلة اجتماعية وطريقة علاجها.

ما مر من آيات قرآنية كانت آيات تمهيدية عن الحج: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا...﴾^١، ومن ثم بيان القبلة: ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...﴾^٢، وهذه الآيات تتناول بعض تفاصيل الحج وأحكامه. ولكن ما بين هذه الآيات نجد آيات تتحدث عن مواضيع متفرقة، فللوهلة الأولى قد نتصور أنها غير مرتبطة بآيات الحج، ولكن الحقيقة أنها عمق الحج، فالحج لله سبحانه، ولا بد أن نعرف أسماءه الحسنى لنحج إليه، كما أننا نحج إلى الكعبة، فلا بد أن نعرف ما هي؟ ومن قام ببنائها؟ ولماذا بنيت؟ وكذلك فيما يرتبط بالقبلة والتوجه إلى الكعبة، لا بد أن نعرف لماذا وكيف؟

١- سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

٢- سورة البقرة، الآية: ١٥٠.



من هذه الآيات نجد آية منفردة تتناول موضوع المسعى، إذ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾^١.

السؤال: لماذا جاءت هذه الآية منفردة ومحددة بموضوعها؟

كان الجاهليون قد وضعوا صنماً على جبل الصفا وآخر على جبل المروة، وابتدعوا للصنمين قصة، وأسموهما وساف ونائلة، وادعوا أنهما كانا شابين يطوفان بين الصفا والمروة، وخلال الطواف غلبتهما الشهوة وفعلا ما فعلا، فحولهما الله إلى حجرين، وها قد وضعناهما على الجبلين ليكونا عبرة للناس..!

فاختلف الناس في وجود شعيرة السعي في الحج أو عدم وجودها، فبين من يؤيد وبين من يرفض، وفي مثل هذه الحالة لا بد على العالم أن يظهر علمه، وإلا فإن البدعة تسيطر على الموقف، ويكون لها قداسة بين الناس.

ولذلك فإن القرآن الكريم قطع هذا الخلاف والنزاع وأطفا هذه الشبهة حينما نزلت هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ



شَعَائِرِ اللَّهِ». فهذه كلمة حاسمة وواضحة تدل على أن شعيرة

المسعى من شعائر الله تعالى ولا ربط للخرافة الجاهلية بها.

وهنا إلتفاتة دقيقة: علينا أن لا نترك شعائر الله تعالى وإن اتخذها

الناس وسيلة للاستزاق أو أحاطوها بمجموعة من الخرافات، فالشعيرة

تبقى على حالها بعد أن تزاح عنها البدع وكل ما لم ينزل به الله تعالى

من سلطان: **﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ**

يَطُوفَ بِهِمَا﴾ أي الصفا والمروة.

وجاءت عبارة **﴿فَلَا جُنَاحَ﴾** هنا بمعنى الوجوب، فعند رفع

الحضر فإن الحكم الأولي يعود، كمثال المانع الذي يحول بين الإنسان

وبين الحج، فإذا ارتفع المانع فإن الوجوب يكون تكليفه، وهكذا فيما

يرتبط بسائر الواجبات.

هذه مقدمة أردت بدء الكلام بها عن ترتيب وهندسة الآيات

القرآنية، والتي هي حسب الحاجة وحسب الحقائق الخارجية، وجاءت

هذه الآية (٨٥١- البقرة) لتعالج شبهة وإشكالية عند الناس تجاه

شعيرة من شعائر الحج، لتكون مقدمة تمهيدية للحديث عن أحكام

الحج.



البصيرة الثانية: حرمة الكعبة والدفاع عن النفس

بعد الحديث عن بناء الكعبة والقبلة والصفاء والمرورة فإن القرآن الكريم يحدثنا عن حرمة المسجد الحرام وحرمة أرض مكة المقدسة، وبيان ذلك بطريقة مميزة، إذ يقول الله سبحانه:

﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ
اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا
اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.

القرآن الكريم يعالج الانحرافات القائمة في الأمة قبل أن يتحدث عن الموضوع المراد، وعلى سبيل المثال نجد أن الحديث القرآني عن الطلاق أكثر بكثير من حديثه عن الزواج، لماذا؟ أليس الزواج أصل، بينما الطلاق أمر شاذ؟

الجواب: لأن الشيء الذي يهدم الزواج هو الطلاق، فلا بد من معالجة هذا السبب الذي يؤدي إلى هدم هذا البناء.

كذلك الحديث عن الحرمات، فبينما يفكر المسلمون بالاعتداء على المشركين كما اعتدوا عليهم نجد أن القرآن الكريم يجعل حدوداً للحرمات، ويبين أنها قصاص بالمثل، فالعين بالعين، والاعتداء على الحقوق يقابله مثله، وهذا ما يسمى بقانون الدفاع الشرعي، حيث



يدافع الإنسان المسلم عن نفسه ودينه وحرماته.

وحسبما قالوا - وفق الإحصاءات - ان ٨٩٪ من عوامل منع وقوع الجريمة يرجع إلى الدفاع الشرعي، فإذا كان كل واحد يدافع عن نفسه، فإن السارق لا يستطيع أن يعتدي على أحد ما زال مدافعاً عن نفسه، لأنه يعرض نفسه للقتل أو للإمساك به، إنما يبحث عن البيت الذي ليس فيه أحد، أو عن المكان الذي فيه شخص ولكنه غير قادرٍ على الدفاع عن نفسه لضعف أو مرض أو ما أشبه.

فالإسلام شرع قانون الدفاع الشرعي وبكل وضوح، فالنبي الأعظم ﷺ كان يرى أنَّ من قُتل دفاعاً عن ماله أو عرضه فهو بمنزلة الشهيد، وهذه إجازة بيّنة ليدافع الإنسان عن نفسه وحرماته، وربنا سبحانه يقول: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ فهذا تشريع لجواز الرد على من يخترق حرمة الشهر الحرام ويتعدى الحدود.

﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾

ولكن هذه الحالة استثنائية، فلا يجوز اختراق الحرمة إلا عند

١ - انظر: الكافي، ج ٥، ص ٥٢، باب (من قُتل دون مظلّمته): عن النبي (ص): (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلَمَتِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ). (مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الشَّهِيدِ).



القصاص، ولا يمكن خوض الحرب داخل مكة المكرمة إلا عند الاعتداء، وورد في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال قال يوم فتح مكة: [إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار] ^١ أي في الساعة التي دخل فيها النبي إلى مكة. وكان الكفار قد أعابوا على النبي دخوله إلى مكة مع سلاحه. بينما كان دخوله ﷺ للدفاع عن نفسه وللاقتصاص منهم وهو أمر جائز، هذا حسب مفهوم الآية الكريمة.

نكتة فقهية

في كتاب الجهاد قال الفقهاء: لا يجوز دخول مكة مع السلاح بأيّ شكلٍ من الأشكال، إلا ما كان من النبي ﷺ. بينما هذه الآيات التي تتناول موضوع الحج تدل على جواز الدخول إلى مكة بالسلاح في حال القصاص أو رد الاعتداء، فإذا دخل العدو إلى مكة المكرمة واستولى على الكعبة المشرفة بلا حق، حينها يجوز الدخول لأجل دفع العدو واسترجاعها لأهلها. ولكن هل



يمكن دفع العدو من غير سلاح؟

القرآن الكريم يبيّن حرمة المسجد الحرام من خلال بيان واقعة شاذة قد تقع بين المسلمين، فيقتتلون فيما بينهم، وفحوى ذلك حرمة الاقتتال إلا في حالة استثنائية، ونحن نلاحظ في التاريخ وجود الاقتتال بين المسلمين في مكة المكرمة والمسجد الحرام. وعند التأمل والتدبر في الآية الكريمة نلاحظ أمراً دقيقاً حيث يقول تعالى: ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيَّكُمْ فَاَعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾. أليس الاعتداء من العدوان؟ فلماذا القرآن

يقول: ﴿فَاَعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ مع أن رد العدوان ليس باعتداء؟

لكي يبيّن الله تعالى لولا رد العدوان فإنه يكون اعتداءً وهو بالطبع محرّم، ولكن للرد شرط فلا بد أن يكون بالمثل وليس أكثر منه: ﴿يَمْثِلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

لماذا التأكيد على التقوى؟

ثم ربنا سبحانه يؤكد على التقوى فيقول:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾

لماذا؟

لأنّ الإنسان عند الحرب والصراع والدماء والدموع والمآسي قد يفقد أعصابه فيتجاوز الحدود، ولمعالجة هذه الحالة العصبية تؤكد الآية



على أهمية تقوى الله، وهذا توجيه لضرورة الالتزام بالحدود الشرعية وعدم تجاوزها.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

ليطمئن المؤمن ولا يخش شيئاً ما دام قد التزم بحدوده الشرعية، فلا غلبة للعدو ما دام الله تعالى معه وهو ناصره ومؤيده.

الإِنْفَاقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

سياق الآية الماضية في اتجاه، بينما نجد هذه الآية في اتجاه آخر، فلم الحديث عن الانفاق؟

لأن الجهاد دائماً وأبداً بحاجة إلى المال والنفقة، والانفاق في الجهاد ينبغي أن لا يكون من جهة خارجية، إنما لا بد أن يكون من داخل الأمة وواقعها ومن صميمها: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

الالتزام بالحكمة عند مواجهة التحديات

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾

هذه الكلمات تحدد الانفاق، فلا بد أن يكون ضمن الحدود الشرعية، فلا يتعدى إلى الاسراف، ولا يتراجع إلى الاقتار، كما ورد



في آية تبين هذا المعنى^١، وهذا وجه من وجوه الآية.
أما الوجه الآخر؛ فيعني إنكم إن لم تنفقوا فإن مصيركم يؤول إلى
التهلكة، فعدم الانفاق يؤدي إلى الهزيمة الأمر الذي يجعل صاحب
المال وأمواله تحت سيطرة العدو!.

وهذه حكمة بالغة الأهمية، أن يعي الإنسان أنه مسؤول عن
نفسه، وعن حياته، فيجب عليه أن لا يعمل عملاً يؤدي به إلى
الهلاك، كالإسراف في الانفاق، أو مواجهة قوة لا يستطيع مواجهتها،
أو عدم المبادرة لمعالجة النفس، أو ما أشبه من وجوه الضرر التي قد
تلحقه بسبب سوء تصرفه.

المحسنون في محبة الله

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

الإحسان والانفاق وجهان لقيمة الكرم، والكرم هو العطاء بمقدار
الحاجة، أما الإحسان فهو المزيد من العطاء، فمن يعطي زكاة أمواله
فهذا انفاق، ومن يخدم الناس الذين يذهبون لزيارة الحسين عليه السلام مثلاً
فإن هذا من الإحسان، فالمؤمن مأمور بالإنفاق، وبالإحسان أيضاً

١- (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) [سورة الفرقان، الآية: ٦٧].



بقدر استطاعته.

فإذا حمل الإنسان نفسه على الإحسان فإن الله تعالى يرد عليه إحسانه، فما أن يعطي بيد وإذا به يأخذ بيد أخرى.

بعد هاتين الآيتين يأتي الحديث عن أعمال الحج، وهي كلمات قصيرة لكن الواحدة منها تحوي على أبواب متعددة من الفقه، ومن السلوك الحسن أن يهتم الفقيه بسائر المسائل الفقهية واطلاعه على كتب الفقهاء وما هو مرتبط بالأحكام الشرعية، ولكن الضرورة تقتضي أن يحفظ أساس هذه الأحكام والتي تتمثل بالآيات القرآنية المختصرة، والتي فيها سائر الأحكام التفصيلية، ذلك لأن الأحكام التفصيلية معرضة للنسيان، وإنما تبقى هذه الثوابت عالقة في ذهن لينتفع منها عند الحاجة إليها.



الفصل الثاني:

فقه آيات الحج





١- الحج وقت معلوم

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾^١.

وقت الحج.. متى؟

﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ﴾

لا يمكن لأحد أن يحدّد في غير الأشهر التي حدّدها الله، لكن لماذا وما الحكمة في ذلك؟

لعل الحكمة من ذلك أن الحج هو اجتماع كتلة اجتماعية كبيرة - منتقاة من كل العالم الإسلامي - في مكان واحد ووقت واحد.

١- سورة البقرة، الآية: ١٩٧.



﴿فَمَنْ قَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾

الحج واجب شرعي، وعلى الإنسان أن ينوي، إذ النية دخيلة في وجوب الحج، ﴿فَمَنْ قَرَضَ﴾ أي فرض الحج على نفسه، وهكذا الصلاة فرض من الله تعالى، ومطلوب من الإنسان أن ينوي ويدخل في الصلاة، فرحمة الله واسعة وعلى الإنسان أن يستفيد منها بإرادته ومشيئته وتبته.

أما الأشهر فهي متمثلة بشهر ذي القعدة ففيه الذهاب الى الحج، وشهر ذي الحجة وفيه أداء مناسك الحج، وشهر محرم وفيه العودة من الحج، وهي الأشهر الحُرْم مضافاً إليها شهر رجب الذي تُستحب فيه العمرة.

محرمات الحج

﴿فَلَا رَفَثٌ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالٌ فِي الْحَجِّ﴾

هذه المحرمات الرئيسية في الحج حال الإحرام، وعند دراستها نرى أنها مرتبطة بسلوك الإنسان مع الآخرين، وهي:

أولاً: الرفث

﴿فَلَا رَفَثٌ﴾

الرفث هو العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة، سواء كانت هذه



العلاقة محلّلة بالزواج قبل الحج، أو غير محلّلة - والعياذ بالله - فحرمتها من باب أولى.

وعبر آية أخرى نتبيّن معنى الرفث بشكل أوضح، إذ يقول سبحانه عن الصيام: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾^١ أي العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة.

ومن ذلك نفهم تحريم جميع العلاقات الجنسية من أي نوع كانت أثناء الحج والعمرة، فالله تعالى حينما يحرم الزنا - مثلاً - لكي يجعل حرمةً للبيت وليكون حصناً، فانه يحرم النظر واللمس أيضاً، كما يحرم أي نوع من العلاقة بين الرجل والمرأة في غير الإطار الصحيح، فالإسلام حينما يحرم شيئاً فإنه يحيطه بجملة من المحرمات التي تحافظ عليه.

فنشر الفوضى الجنسية في الأرض، وإشاعة الإثارات والتبرج والرقص والغناء وما أشبه، كل ذلك يجعل الزنا أمراً طبيعياً، إذ كلُّ الواقع مليء بالإثارات التي تدفع إليه..!

وبالعكس من ذلك إذا عملنا على ترك المقدمات بشكل كامل، فإن ترك الزنا يكون أمراً عادياً وسهلاً، فلا يفكر فيه أحد.

كذلك الأمر بما يرتبط بالرفث في الحج، فحتى مجرد العقد، بل



والشهادة على العقد، محرمة في الحج، حيث يحرم الإسلام كل ما يرتبط بالعلاقة الجنسية عند الإحرام.

ثانياً: الفسوق

﴿وَلَا فُسُوقٌ﴾

كل ظلم يصدر من الإنسان تجاه الآخر يعد فسوقاً - حسبما يبدو - ومن الظلم التعالي على الآخرين، وأصل الكثير من المحرمات والمشاكل يعود إلى تفضيل الإنسان نفسه على الآخرين. لكن ما علاقة هذا بالحج؟

الناس يأتون إلى الحج من أماكن وأنماط ومستويات مختلفة، ومشكلة الإنسان الأنانية والتفاخر بما عنده من مميزات على غيره من الناس، فيتعالى البعض على البعض الآخر، وفي الجاهلية كان يحدث ذلك كثيراً، فكل قوم كان يفتخر بما عنده ويهجو غيره من الأقسام، وربنا سبحانه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾^١، فالسخرية أو التفاخر أو ما أشبه كل ذلك من الفسوق وهو محرّم.



ثالثاً: الجدل

﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾

للإنسان أفكاره الخاصة التي يريد أن يطرحها على الآخرين، وطرح الأفكار على الآخرين لا إشكال فيه ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾^١، ولكن بشرط أن لا يصل ذلك إلى مرحلة الجدل ومحاولة إثبات الكلام بأية طريقة ممكنة، فالخلق الاسلامي يقول: ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^٢.

وفي الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام في بيان هذه الآية، يقول:

[أَمَّا الْجِدَالُ بِغَيْرِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، فَإِنْ تُجَادِلَ بِهِ مُبْطِلاً فَيُورِدَ عَلَيْكَ بَاطِلاً فَلَا تَرُدُّهُ بِحُجَّةٍ قَدْ نَصَبَهَا اللَّهُ، وَلَكِنْ تَجَحَّدُ قَوْلَهُ أَوْ تَجَحَّدُ حَقّاً يُرِيدُ بِذَلِكَ الْمُبْطِلُ أَنْ يُعَيِّنَ بِهِ بَاطِلَهُ، فَتَجَحَّدُ ذَلِكَ الْحَقَّ مَخَافَةً أَنْ يَكُونَ لَهُ عَلَيْكَ فِيهِ حُجَّةٌ، لِأَنَّكَ لَا تَدْرِي كَيْفَ الْمَخْلَصُ مِنْهُ، فَذَلِكَ حَرَامٌ عَلَى شِيعَتِنَا أَنْ يَصِيرُوا فِتْنَةً عَلَى ضَعْفَاءِ إِخْوَانِهِمْ وَعَلَى الْمُبْطِلِينَ. أَمَّا الْمُبْطِلُونَ فَيَجْعَلُونَ ضَعْفَ الضَّعِيفِ مِنْكُمْ إِذَا تَعَاطَى مُجَادَلَتَهُ

١- سورة الحج، الآية: ٢٨.

٢- سورة النحل، الآية: ١٢٥.



وَصَعَفَ فِي يَدِهِ حُجَّةً لَهُ عَلَى بَاطِلِهِ، وَأَمَّا الضَّعْفَاءُ مِنْكُمْ
فَتَنَعَّمْ قُلُوبُهُمْ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ضَعْفِ الْمُحَقِّ فِي يَدِ الْمُبْطِلِ^١،
وهنا بيان واضح حيث لا بد من قول الحقيقة سواء في الهدف أو في
الوسيلة إليه.

ثم يقول ربنا سبحانه بعد ذلك:

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾.

فليس في الحج قيادة لأحد على أحد، إنما كل واحد بمفرده ويكون
الأمر ما بينه وبين الله تعالى، والله تعالى يعلم بكل خير يفعله الإنسان.

التقوى من حِكم الحج

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾.

ومن هذه الخاتمة للآية الكريمة نفهم حكمةً من حِكم الحج وهي
التقوى، فمطلوب من الإنسان أن يزداد ورعاً ومعرفة بالله تعالى،
فيكون ذلك ثمرة للحج.

وهذه الآية الكريمة هي الآية الأم من آيات الحج، ولها حقائق
أخرى لعلنا نوفق لبيانها.



٢- كيف تتحقق الاستطاعة

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى
لِّلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ
أَمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا
وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^١.

قبل البدء لابد من بيان بصيرة مهمة تتصل بدور التدبر في القرآن والاستضاءة بنوره في معرفة الاحكام الشرعية كما في معرفة المواقف الصحيحة في الحياة.

إنَّ القرآن الكريم دستورنا، فأحكامه العامة لا بد أن تكون بمثابة مرجع للناس، بمعنى أنَّه كلما تعقدت الأمور والأحكام عليهم رجعوا



إليه، كما يتم الرجوع إلى دستور الدولة على الرغم من وجود قوانين تفصيلية.

وبناءً على هذه البصيرة فإنَّ هناك أحكاماً أساسية ترتبط بمسائل الحج قد أشار إليها القرآن الكريم، فالإستطاعة مثلاً - والبحث عنها هو البحث الأول المرتبط بأحكام الحج بحسب تنظيم الفقهاء لمسائل الحج منذ كتاب الناصريات وإلى يومنا - نجد الحديث عنها قرآنيّاً يأتي في إطار الحديث عن الكعبة ومقام إبراهيم ودوره ﷺ في تشييد الكعبة. وهذه الآيات وردت في سورة آل عمران التي يبدو أنها تركز على موضوع الولاية، ومنه الحديث عن دور إبراهيم ﷺ الذي جعله الله للناس إماماً، ومن أبعاد دوره ﷺ ارتباط فريضة الحج ومناسكه به، فكل عملٍ من أعمال الحج، سواءً الطواف حول البيت أو السعي بين الصفا والمروة أو رمي الجمار، له نوع ارتباطٍ بإبراهيم ﷺ.

فارتباط الناس بالأنبياء ليس ارتباطاً مثالياً مجرداً، بل هو ارتباط واقعيّ عمليّ ويوميّ، ولذلك نجد تفسير الإمام ﷺ لقول الله سبحانه: ﴿لَيَقْضُوا تَفْتَهُمْ﴾^١ بأنه: «لقاء الإمام»^٢، ففي الحج أيضاً لا بد من الارتباط بالإمام.

١- سورة الحج، الآية: ٢٩.

٢- تفسير الصافي، ج ٣، ص ٣٧٦.



وبعد هذه المقدمة، نتدبر في الآيتين الكريمتين من سورة آل عمران:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى
لِّلْعَالَمِينَ﴾.

إنَّ البيت الحرام هو أول بيتٍ وُضِعَ للناس، والذي يعني - بحسب ما يبدو - أنه قد جُعِلَ منذ خلق الأرض، بل إنَّ الأرض قد دُحِيت من تحت البيت كما في بعض الأحاديث الشريفة التي مرت الإشارة إليها.

وموقعه (بَكَّةَ) وقد سُمِّيَتْ مكةُ (بَكَّةَ) بسبب الزحام الحاصل فيها عند الطواف، فيبكِ الناس بعضهم بعضاً أي يتدافعون^١، الأمر الذي كان ولا يزال.

وهذا البيت وُضِعَ هدىً للعالمين كلهم، فليس البيت خاصاً بفئةٍ دون أخرى، بل هو للعالمين، فلو تُرك البيت أو هُدِمَ لم يُناظر أهل العالم كلهم.

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾



من سمات هذا البيت أنَّ فيه آياتٍ بيناتٍ، منها مقام إبراهيم، ومنها أن من دخله كان آمناً تشريعياً، وعلى الرغم من كل ما حصل فإنَّ البيت موطنٌ آمنٌ لا للناس فحسب بل حتى للهوام والطيور، وأعظم أمنٍ فيه أنَّ من يدخله بنيةً صالحةً، يكون آمناً من عذاب الله سبحانه يوم القيامة.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

هنا أكثر من تساؤل توقف عنده الفقهاء:

أولاً: ما معنى (حِجُّ البيت)؟

هل المقصود منه مناسك الحج، أم أنه التحرك نحو البيت؟ ويظهر الفرق بينهما في أنَّ الأول يكون مقتصرًا على الشريعة المعروفة (أي الحج) بمناسكها الخاصة، أما لو كان المقصود هو الثاني - أي قصد البيت - فيشمل الحج والعمرة، وتكون العمرة حينئذٍ بذاتها واجبة، من دون أن يرتبط وجوبها بوجوب الحج.

ويبدو أن المراد من (حِجُّ البيت) هو الذهاب إلى البيت، وقد يكون لحجٍ أو عمرةٍ.



ثانياً: ماذا تعني الاستطاعة؟

لقد جُعِلَت الاستطاعة شرطاً لوجوب قصد البيت، فما هي حدود هذه الاستطاعة؟ وهل يشترط في تحققها وجود المال والزاد والراحلة لكلِّ حاجٍّ ولكل الطريق، أم يكفي قدرته على الوصول حتى من دون ذلك كله، بأن يذهب إليها سيراً على الأقدام، أو يحمله غيره إلى الحج في مقابل أدائه بعض الخدمات للحجاج؟ أو يلقّق المسير بين الركوب والمشى؟

للإجابة عن هذه التساؤلات المتشعبة، نذكر جملةً من النصوص الواردة في المقام:

روي عن الحلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزَّ وجل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أنه سُئِلَ: مَا السَّبِيلُ؟ قَالَ:

[أَنْ يَكُونَ لَهُ مَا يَحْجُ بِهِ].

قيل: فمن عُرِضَ عليه ما يحج به فاستحيا من ذلك أ هو ممن يستطيع إليه سبيلاً؟ قال:

[نَعَمْ، مَا شَأْنُهُ يَسْتَحْيِي وَلَوْ يَحْجُ عَلَى حِمَارٍ أَبْتَرَّ، فَإِنْ كَانَ



يُطِيقُ أَنْ يَمْشِيَ بَعْضاً وَيَرْكَبَ بَعْضاً فَلْيُحَجَّ^١]

أكدت كلمة الإمام لبيان الاستطاعة على أن يكون له ما يحج به، سواءً كان ذلك زاداً، أو راحلةً، أو صحةً في الجسم، أو أمناً في الطريق، أو ما أشبهه.

وفي الرواية التالية فصل الإمام ما يحج به:

روي عن محمد بن يحيى الخثعمي قال: سأل حفص الكناسي أبا عبد الله عليه السلام وأنا عنده عن قول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ

حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ ما يعني بذلك؟ قال:

[مَنْ كَانَ صَحِيحاً فِي بَدَنِهِ، مُخَلِّ سَرْبُهُ، لَهُ زَادٌ وَرَاحِلَةٌ، فَلَمْ يَحْجْ فَهُوَ مِمَّنْ يَسْتَطِيعُ الْحَجَّ] أو قال: [كَانَ مِمَّنْ لَهُ مَالٌ].

فقال له حفص الكناسي وإذا كان صحيحاً في بدنه، مخلى سربه، له زاد وراحلة، فهو ممن يستطيع الحج؟ قال: [نَعَمْ]^٢.

وروي عن الفضل بن شاذان، عن الرضا عليه السلام في كتابه إلى المأمون قال:

[وَحِجُّ الْبَيْتِ فَرِيضَةٌ عَلَى مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَالسَّبِيلُ

١- الاستبصار فيما اختلف من الأخبار، ج ٢، ص ٣٥٠.

٢- المصدر نفسه.



الرَّادُّ وَالرَّاحِلَةُ مَعَ الصَّحَّةِ] ١.

وعن هشام بن الحكم، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سُئِلَ في قوله عزَّ وجل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ ما يعني بذلك؟ قال:

[مَنْ كَانَ صَحِيحًا فِي بَدَنِهِ، مُخَلَّى سَرْبُهُ، لَهُ رَادٌّ وَرَاحِلَةٌ] ٢.

وعن عبد الرحمن بن سيابة، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قَالَ: [مَنْ كَانَ صَحِيحًا فِي بَدَنِهِ، مُخَلَّى سَرْبُهُ، لَهُ رَادٌّ وَرَاحِلَةٌ، فَهُوَ مُسْتَطِيعٌ لِلْحَجِّ] ٣.

وعن عبد الرحمن بن الحجاج قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قَالَ: [الصَّحَّةُ فِي بَدَنِهِ وَالْقُدْرَةُ فِي مَالِهِ] ٤.

وروي عن هشام بن إبراهيم الخثلي وهو المشرقي قال: قال لي أبو الحسن الخراساني عليه السلام: [كَيْفَ تَقُولُونَ فِي الْإِسْطِطَاعَةِ]؟ إلى أن قال: قلت: يقول أبو عبد الله عليه السلام وسئل عن قول الله عز وجل:

١- وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٣٥.

٢- المصدر نفسه.

٣- المصدر نفسه.

٤- المصدر نفسه.



﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ ما

استطاعته؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: [صِحَّتُهُ وَمَالُهُ] فنحن بقول أبي عبد الله عليه السلام نأخذ. قال:

[صَدَقَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ هَذَا هُوَ الْحَقُّ]¹.

ويبدو من خلال هذا الحديث نفى الإمام الرضا عليه السلام لرأي آخر كان سائداً في موضوع الاستطاعة، بتأييده قول جده الصادق عليه السلام وبيان أنه هو الحق.

وعن جعفر بن محمد عليه السلام أنه سئل عن قول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ

عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال:

[هَذَا عَلَى مَنْ يَجِدُ مَا يَحُجُّ بِهِ].

قيل: فمن عُرض عليه ما يحج به فاستحيا؟ قال:

[هُوَ مِمَّنْ يَسْتَطِيعُ، وَلَمْ يَسْتَخِي، يَحُجُّ وَلَوْ عَلَى حِمَارٍ

أَبْتَر]².

وروي عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سأله رجل من أهل

القدر فقال: يا ابن رسول الله أخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ

١- مستدرک الوسائل، ج ٨، ص ٢٠.

٢- دعائم الإسلام، ج ١، ص ٢٨٨.



عَلَى النَّاسِ حُجُّ أَلْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴿١﴾ أليس قد

جعل الله لهم الاستطاعة؟ فقال:

[وَيَحْكُ إِيَّامًا يَعْنِي بِالِاسْتِطَاعَةِ: الزَّادَ وَالرَّاحِلَةَ، لَيْسَ

اسْتِطَاعَةً الْبَدَن] ^١.

ومما سبق يظهر أنَّ الزاد والمال متفقٌ على اعتبارهما، ولكن ماذا عن غيرهما؟ فهل يمكن أن نعتبر المتمكّن من المشي مستطيعاً يجب عليه الذهاب؟

يظهر من بعض النصوص ذلك، كما سبق، مضافاً إلى مثل ما روي عن معاوية بن عمار قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجل عليه دين أ عليه أن يحج؟ قال:

[نَعَمْ إِنَّ حَجَّةَ الْإِسْلَامِ وَاجِبَةٌ عَلَى مَنْ أَطَاعَ الْمَشْيَ مَنْ الْمُسْلِمِينَ، وَلَقَدْ كَانَ أَكْثَرُ مَنْ حَجَّ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُشَاهَةً، وَلَقَدْ مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِكَرَاعِ الْعِمْيمِ فَشَكَّوْا إِلَيْهِ الْجَهْدَ وَالْعَنَاءَ، فَقَالَ: «شُدُّوا أَرْزُكُمْ وَاسْتَبْطِنُوا، فَفَعَلُوا ذَلِكَ فَذَهَبَ عَنْهُمْ» ^٢.

١- الكافي، ج٤، ص ٢٦٨

٢- تهذيب الأحكام، ج١١، ص ٤٩٥.



كما يظهر من بعضها وجوبه مع إمكان التفليق، أو الركوب مع خدمة الحجاج، كما روي عن أبي بصير، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام قول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال:

[يَخْرُجُ وَيَمْشِي إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ]. قُلْتُ: لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمَشْيِ. قَالَ [يَمْشِي وَيَرْكَبُ]. قُلْتُ: لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ أَغْنِي الْمَشْيَ. قَالَ: [يَخْدُمُ الْقَوْمَ وَيَخْرُجُ مَعَهُمْ]^١.

وقد دار البحث حول هذه النصوص وأمثالها التي تعتبر تحقق الاستطاعة مع إمكان خدمة القوم، أو التفليق بين المشي والركوب، مما يعني تحقق الاستطاعة في هذه الحالة عند الكثير من الفقهاء، وقد حمل بعض فقهاء الروايات على الاستحباب المؤكّد، قال الحر العاملي: [وقد حمل الشيخ الحديثين على الاستحباب المؤكّد، وهو خلاف الظاهر، والاحتياط مع صدق الاستطاعة وعدم المعارض الصريح واحتمال ما تضمن اشتراط الزاد والراحلة لأن يكون مخصوصاً بمن يتوقف استطاعته عليهما كما هو الغالب]^٢.

١- المصدر نفسه.

٢- وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٤.



ويبدو أن الإستطاعة مع القدرة على المشي ليست حقيقةً مطلقة للجميع، فمن كان قريباً من البيت فاستطاعته متحققةً بقدرته على المشي، وقد كان هذا الأمر سائداً عند الكثير من الناس اقتداءً بالنبي واهل بيته عليهم السلام، ولكن اليوم مع تباعد الديار حيث لا يمكن المشي إلى مكة لأغلب الناس، فلا يمكن القول بأن قدرتهم على المشي كافيةً لتحقيقها، وكذلك موضوع الخدمة، إذ من الصعب أن يقال بأن الركوب مع الخدمة محققٌ للاستطاعة مطلقاً وعلى جميع الأفراد، فهل يمكن فرض ذلك على شخصية إجتماعية كبيرة السن، فيقال بوجوب الحج عليه بادائه خدمة الحجاج مثلاً؟

فالاستطاعة لا بد من حملها بحسب الفهم العرفي لها، وبحسب الزمان والمكان، والله العالم.



٣- مصاديق الاستطاعة

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى
لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ
أَمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا
وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^١

الكلمة القرآنية وتعدد المصاديق

القرآن الكريم - كالشمس - يشرق كل يوم من جديد، فمصاديق
الآيات الكريمة تكاد لا تنتهي، فهي متجددة بين الحين والآخر، ولعل
هذا من حكمته البالغة، فبينما كل شيء يتغير من ظروف وأماكن
وأناس، وإذا بكلمات القرآن نفسها لا تتغير، ولكنها تشرق على كل

١- سورة آل عمران، الآيات: ٩٦-٩٧.



زمان بمصاديق مختلفة^١.

فمن تلك الكلمات القرآنية كلمة الاستطاعة:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾.

فالاستطاعة ذات يوم كانت تتمثل بالزاد، فإذا توفر الزاد وجب الحج، وما كانت الرحلة شرطاً في الاستطاعة، لأن الناس كانوا حول مكة وكانوا قد اعتادوا على المشي، ولعل الآية الكريمة من سورة الحج تشير إلى ذلك، حيث يقول تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا - أَوْ مَشَاءً - وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾. فالأساس هو المشي ثم الركوب على الدابة.

ولكن بعدئذ أصبحت الرحلة جزءاً من الاستطاعة، فأنتي لأهل الكوفة - مثلاً - أن يذهبوا للحج مشياً؟! لا بد أن تكون لهم رحلة، كما وأن الناس ضعفوا فما عادوا كالسابقين من الأعراب الذين كانوا قد اعتادوا على الخشونة والمشقة.

ثم بعد ذلك أصبحت حكومات مختلفة، ودول متفرقة، وحدود مصطنعة تفصل البلاد بعضها عن بعض، فتعددت الشروط من:

١- روي عن الإمام الرضا، عن أبيه (عليه السلام) أن رجلاً سأل أبا عبد الله (عليه السلام): ما بال القرآن لا يزداد عند النشر والدرس إلا غضاضة؟ فقال: (لأنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَجْعَلْهُ لِرَمَانٍ دُونَ رَمَانٍ، وَلَا لِنَاسٍ دُونَ نَاسٍ، فَهُوَ فِي كُلِّ زَمَانٍ جَدِيدٌ، وَعِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ غَضٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ). [بحار الانوار، ج ٨٩، ١٥].



الجواز، والتأشيرة، والرخصة، والمال، وما أشبهه، وهكذا اليوم قد تستجد أمور في الاستطاعة كانتشار مرض - على سبيل المثال - فيشترط التحصن من المرض.

فالاستطاعة مفهوم عام تتعدد مصاديقه، ولا شك في أنَّ الفقهاء تقع على عاتقهم مسؤولية استنباط الأحكام من هذه الكلمة وضمن الظروف المختلفة، والتي تتناسب مع كل ظرف قائم، ولكن من دون تحديد الكلمة بتلك الأحكام، لأنَّ الظروف تتغير فتتغير الأحكام.

الآيات البيِّنات في بيت الله الحرام

والقرآن الكريم يصدِّق بعضه بعضاً، فإذا وجدنا كلمة غامضة في القرآن الكريم فإنَّ هناك غالباً كلمات أخرى تكشف هذا الغموض، سواء في الآية نفسها، أو في الآيات التي تسبقها، أو التي تلحقها، وربما في مواضع أخرى من القرآن، وربنا سبحانه يقول في الآيتين اللتين توجَّنا بهما الحديث:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى
لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾.

فما المقصود من الآيات البيِّنات؟



هل المقصود منها الحجر الأسود؟ أم بئر زمزم؟ أم عرفات؟ أم منى؟
أم غير ذلك؟

قد تكون كل هذه الوجوه صحيحة، ولكن حسبما يبدو إنَّ تفسير
هذه الكلمة موجود في سياق الآية نفسها، وهي ثلاث آيات:

أولاً: ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾

فهذه آية ظاهرة وقد أشير إليها في مكان آخر، فمقام إبراهيم عليه السلام
- والذي فيه صخرة يراها جميع الناس وعليها أثر أقدامه - هو آية
بيّنة ومقام مقدس.

ثانياً: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾

من آيات الله تعالى أن جعل مكة المكرمة منطقة آمنة في الأرض،
حيث يدفع الله عنها الخطر، وقصة أبرهة يذكرها القرآن الكريم في
سورة الفيل، وهذا الأمر بيّن أيضاً ويشهده الناس.

ثالثاً: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ

سَبِيلًا﴾.

وهذه هي الآية الثالثة وهي قصد الناس إلى حج بيت الله.

وكما سبق وأن قلنا إنَّ كلمة (حج) - بكسر الحاء - هي مصدر،

بمعنى الذهاب والقصد، وكلمة (الحج) - بفتح الحاء - اسم مصدر،



كمثل التوضي والوضوء، والاعتسال والغسل، فالشريعة الإلهية التي يقوم بها الناس بمكة تسمى الحَج، أما الذهاب إليها فهو (حج). وهذا ما أستفیده من الآية الكريمة على الرغم من وجود أقوال أخرى مخالفة، حيث يرى البعض إنّ (الحج) هو القصد و(الحج) هي الشريعة المعروفة. وهناك اختلاف كبير بين الفقهاء والمفسرين في هذه الكلمة.

أبعاد الكفر بشريعة الحج

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

هناك أكثر من تفسير لمعنى الكفر في هذه الآية الكريمة، فعدم القيام بواجب الحج يُعدّ كفراً، وهذا أحد المعاني، والمعنى الآخر عدم الشكر، فإذا أنعم الله على العبد وكان مستطيعاً للحج فلم يشكر النعمة بالذهاب إلى مكة، فإنّ هذا يكون كفراً بالنعمة، ولكنّ الله

﴿غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

فما هو وجه المناسبة لهذه الكلمة في الحديث عن الحج؟

يريد الله تعالى أن يخبر عباده بغناه عنهم، فلا يفكر أحدٌ منهم بأن الله يستفيد منه في ذهابه إلى الحج، تعالى الله عن ذلك، إنما يذهب الناس إلى الحج لينالوا من الله فضلاً، يذهبون إلى الحج ليصبحوا



أصحاء كما ورد في الحديث الشريف: [سافروا تصحوا] وأيضاً لكي يستغفروا: [حجّوا تستغنوا]^١، فالحج منفعة للناس كما تعبّر الآية الكريمة: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾^٢، وليس كما قد يتصور البعض أن الله محتاج إليهم وإلى بعض أموالهم!.

وغنى الله تعالى ليس فقط عن الناس الذين يأتون إلى الحج، إنما غناه عن العالمين جميعاً: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. وربنا سبحانه يقول في الحديث القدسي: [يَا ابْنَ آدَمَ لَمْ أَخْلُقْكَ لِرَبِّحٍ عَلَيْكَ، إِنَّمَا خَلَقْتُكَ لِتَرْبَحَ عَلَيَّ]^٣، وفي آيات كريمة يقول الرب المتعال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾^٤، فإذا عبدوه حصلوا على الرزق، وهو الغني عن العالمين.

ولتقريب الصورة أكثر نقول: إن العبادة لله تعالى هي كاستفادة من الشمس، فنحن نأخذ منها العديد من النعم، ولكن لا يمكن أن

١- من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٢٦٥، قال رسول الله (ص): (سَافِرُوا تَصِحُّوا، وَجَاهِدُوا تَغْنَمُوا، وَحُجُّوا تَسْتَغْنُوا).

٢- سورة الحج، الآية: ٢٨.

٣- شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد)، ج ٢٠، ص ٣١٩.

٤- سورة الذاريات، الآيات: ٥٦-٥٨.



نفعها نحن بشيء، فإذا عبدنا الله تعالى فإنَّ الطريق يُفتح بيننا وبينه من دون حُجُب الغفلة والكبر والكفر وما أشبه، حينها ستنهال الرحمة الإلهية علينا من دون أن نضر الله بشيء أو ننفعه.

هل يجب الحج مشياً؟

هل يجب الحج على الإنسان إذا لم تنهياً له الرحلة وكان قادراً على المشي أم لا؟

في البحث الماضي تحدثنا عن هذه النقطة، إلّا أنّها تفتقر للمزيد من التعمّق، فنقول في الجواب:

حسب رواياتنا فإن الجواب: بلى يجب عليه الحج، ففي حجة الوداع كان أكثر الناس الذين حجّوا مع رسول الله ﷺ مشاةً، وكما تعبر الآية الكريمة: ﴿يَأْتُوكَ رَجَالًا﴾، وسنورد بعض الروايات التي تؤكّد هذا الحكم.

فما الذي جعلنا نشك في وجوب الحج مشياً مع وجود الآيات والروايات، ومع وجود العموم لكلمة الاستطاعة في الآية الكريمة: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾؟.

حتى أن البعض قال بعدم وجوب الحج حتى لمن كان من أهل مكة



إِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ رَاحِلَةً!.

أَحَادِيثُ الْمَشْيِ

عن بعض نسخ الفقه الرضوي، عن أبيه عليه السلام قال: سألتَه عن دَينِ الحج، قال:

[إِنَّ حَجَّةَ الْإِسْلَامِ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مَنْ أَطَاقَ الْمَشْيَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ]¹.

وروي عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت لأبي عبد الله قول الله: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾؟ قال:

[تَخْرُجُ (رَاكِبًا) إِذَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ تَمْشِي].

قال فقلت: لا نقدر على ذلك. قال:

[تَمْشِي وَتَرْكَبُ أَحْيَانًا].

قلت: لا نقدر على ذلك. قال:

[تَحْدُمُ قَوْمًا وَتَخْرُجُ مَعَهُمْ]².

وفي هذا الحديث توجيه للاتفاق مع جماعة تكون عندهم الراحلة، فيتفق معهم ليكون لهم خادماً في رحلتهم في قبال الراحلة التي يعطوها

١- مستدرک الوسائل، ج ٨، ص ٢٣.

٢- مستدرک الوسائل، ج ٨، ص ٢٣.



له ليركب عليها.

وجاء في حديث المحاربي عن الامام الصادق عليه السلام:

[مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَحْجَّ حَجَّةَ الْإِسْلَامِ، لَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ ذَلِكَ حَاجَةٌ تُجِفُّ بِهِ، أَوْ مَرَضٌ لَا يُطِيقُ فِيهِ الْحَجَّ، أَوْ سُلْطَانٌ يَمْنَعُهُ، فَلَيَمُتْ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا]¹.

فإذا ترك الإنسان شريعة الحج وهي من شرائع الاسلام الأساسية، فإنه يموت على غير دين الإسلام وإن ادعى أنه مسلم.

وعن صحيح الحلبي في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أنه سئل الامام الصادق عليه السلام: ما السبيل؟ قال:

[أَنْ يَكُونَ لَهُ مَا يَحْجُّ بِهِ - إِلَى أَنْ قَالَ -: فَإِنْ كَانَ يُطِيقُ أَنْ يَمْشِيَ بَعْضًا وَيَرْكَبَ بَعْضًا فَلْيَحْجَّ]².

وفي الحديث الشريف عن الامام الصادق عليه السلام:

[مَنْ قَدَرَ عَلَى مَا يَحْجُّ بِهِ، وَجَعَلَ يَدْفَعُ ذَلِكَ وَلَيْسَ لَهُ عَنْهُ شُغْلٌ يَعْذِرُهُ اللَّهُ فِيهِ حَتَّى جَاءَ الْمَوْتُ، فَقَدْ صَيَّغَ شَرِيعَةً

١- الكافي، ج ٤، ص ٢٦٨.

٢- المصدر، ص ٢٦٦.



مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ]¹.

وروي عنه عليه السلام:

[إِذَا قَدَرَ الرَّجُلُ عَلَى الْحَجِّ فَلَمْ يَحِجَّ فَقَدْ تَرَكَ شَرِيعَةً مِنْ

شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ]².

وفي رواية محمد بن مسلم، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: فإن

عُرض عليه الحج فاستحيا؟ قال:

[هُوَ مِمَّنْ يَسْتَطِيعُ، وَلَمْ يَسْتَحِ، وَلَوْ عَلَى حِمَارٍ أَجْدَعَ

أَبْتَرٌ].

فحتى لو كان الحمار فيه عاهة بوجهه، أو كان ذيله مبتوراً فلا

إشكال في ذلك، ويكمل الإمام:

[فَإِنْ كَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْشِيَ بَعْضاً وَيَرْكَبَ بَعْضاً فَلْيَفْعَلْ]³.

وعن أبي بصير، عن الامام الصادق عليه السلام، قال: قلت له: من عُرض

عليه الحج فاستحيا أن يقبله، أ هو ممن يستطيع الحج؟ قال: [مُرُهُ

فَلَا يَسْتَحِ وَلَوْ عَلَى حِمَارٍ أَبْتَرٌ، وَإِنْ كَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْشِيَ

بَعْضاً وَيَرْكَبَ بَعْضاً فَلْيَفْعَلْ]⁴.

١- من لا يحضره الفقيه، ج ٢، ص ٤٤٨.

٢- وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٢٨.

٣- تهذيب الاحكام، ج ٥، ص ٤.

٤- وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٢.



إذاً محور الحديث حول كلمة (الاستطاعة) والآية الكريمة واضحة الدلالة، فكل من استطاع أن يحج فعليه الوجوب، سواء على الدابة، أو على الأقدام، أو عبر أية وسيلة من وسائل النقل.

ما حكم الزاد والراحلة

من البديهيات أن يأكل الإنسان في بيته ويشرب ويوفر لنفسه ما يحتاج من مؤونة، والأمر نفسه يكون في السفر إن كان هذا هو المقصود، وإلا فما هو معنى الزاد المطلوب من تحقيقه في الاستطاعة؟ هل المراد منه الطعام الزائد، أم أنه يكفي مجرد وجود الطعام الذي يسد المؤونة؟

الجواب: المقصود من الزاد هو الزاد الإضافي الذي يكفي الشخص في ذهابه إلى الحج، فهذا هو معنى الزاد، أما من لا يجد طعاماً إلا حينما يعمل فهذا ممن لا يتوفر عنده الزاد.

ولكننا اليوم نجد أنَّ عنوان الزاد أصبح مختلفاً، حيث يتصور البعض أنه من الضروري أن يكون للحاج سكن من الدرجة الأولى، وطعام من أفضل الأطعمة، وسفر عبر أفضل الطائرات.

والحقيقة إنَّ وجود الزاد ضروري ولكن يجب أن يكون بالمقدار



المتعارف والممكن، فإذا توفر الزاد مع مجموعة يرحل الإنسان معهم في قبال أن يقدم لهم خدمة، كتعليم القرآن أو المسائل الشرعية أو ما أشبه، فإنَّ هذا يوفر شرط الزاد في السفر على الحاج، وليس بالضرورة أن يكون الزاد عبارة عن كمية كبيرة من النقود يصرفها الإنسان في توفير حاجاته، وربما ببذخ وإسراف.

يقول السيد اليزدي في كتاب العروة الوثقى:

[إذا لم يكن عنده الزاد، ولكن كان كسوباً (أي يعمل فيكتسب الأموال قبال عمله) يمكنه تحصيله (أي الزاد) بالكسب في الطريق لأكله وشربه وغيرهما من بعض حوائجه، هل يجب عليه أو لا؟ الأقوى عدمه، وإن كان أحوط]^١.

لماذا الأقوى عدم الوجوب؟

لأنَّ الروايات تشترط الزاد والراحلة، حيث فسَّر المعصومون عليهم السلام الاستطاعة في الآية الكريمة بثلاث كلمات، هي: الزاد والراحلة وتحلية السرب.

فمن لم يكن عنده زادٌ لا يجب عليه الحج.

١- العروة الوثقى، ج٤، ص٣٦٥، شرائط وجوب حجة الإسلام، المسألة ٥.



٤- إتمام الحج وحالة الحصر

﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَانْقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^١.

بصيرتان نستهل بهما الحديث:



البصيرة الأولى: فلسفة الحج وحكمته

الحج بأحكامه وشعائره يجمع عموم الواجبات الأخرى، فالحج صلاة وصيام وجهاد، والحج حركة وسعي، ولذلك فإن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته الأخيرة قال: **[اللَّهُ اللَّهُ فِي بَيْتِ رَبِّكُمْ فَلَا يَخْلُو مِنْكُمْ مَا بَقِيْتُمْ، فَإِنَّهُ إِنْ تُرِكَ لَمْ تُنَاطَرُوا]**^١.

فالحج أساس الدين، وهو نوع من الجهاد الأكبر، وهو من شعائر الله العظيمة، وفيه العديد من الحُكَم الإلهية التي تهدف صياغة الإنسان وتربيته، ففيه الطواف والسعي والإفاضة، وكلها تؤدي بشكل جماهيري كبير، حيث يتعلم الفرد كيف يتعايش مع الآخرين، ولهذا التجمع أبعاد أخرى عديدة نجد أن بعض الدراسات والبحوث الحديثة تعرضت لها، من اجتماع الأرواح إلى بعضها البعض وانبعاث الطاقة الروحية الكبيرة منها فيما لو كانت الأعداد كبيرة ومتحدة في المكان والزمان.

بالإضافة إلى ذلك فإن الحج حركة، فمن بيت الإنسان الذي قد يكون في آخر نقطة من الدنيا، فينطلق القاصد للحج بنفسه مع



مشقة الطريق، متحملاً الخشونة والقسوة في سفره الطويل، حتى يصل إلى مكة المكرمة، وقديماً كان الأمر يستغرق شهوراً أو أعواماً طويلة، وحتى وقتنا الحاضر فإن المشقة موجودة في الحج وهي جزء لا يتجزأ منه، ومن طلب الحج بلا مشقة فلا يجده أبداً، ولن ينالها الإنسان إلا بشق الأنفس، وهذه هي طبيعة الحج التي أرادها الله سبحانه.

أراد الله عز وجل للإنسان أن يتحسس الصعوبة والمشقة في فريضة الحج، من اشتداد الطواف وازدحامه، واصطكاك الناس لبعضهم البعض، وهكذا من جهود يبذلها في السعي بين الصفا والمروة والذي يقول عنه الحديث الشريف عن الامام الصادق عليه السلام: **[مَا مِنْ بُقْعَةٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمَسْعَى، لِأَنَّهُ يُذَلُّ فِيهَا كُلُّ جَبَّارٍ]**^١، فلا درجات هناك ولا أية اعتبارات، فالجميع يسعى بينهما ثم يهرول عند المنتصف في حالة من إذلال النفس لله تعالى امتثالاً لأمره.

ولذلك فإن الإسلام أمرنا بالحج، وأهل البيت عليهم السلام لطالما أكدوا عليه رغم كل الصعوبات التي فيه، وهو ضرب من ضروب الجهاد، لما فيه من جوانب تربية وترويض للنفس على تحمل الصعوبات.



ولا بد للحاج أن يعرف فلسفة الحج قبل ذهابه إلى مكة المكرمة، ولو تسنى الأمر لكان من الضروري إصدار قرار بفتح معاهد تعني بهذا الشأن، فيدخل الحاج قبل ذهابهم إلى الحج في دورة تعليمية وتدريبية متكاملة، يتم فيها التعرف على أحكام الإحرام والطواف والمحرمات والمستحبات وما أشبه من الأحكام الأخرى، وهي ليست بقليلة وفي حالة من التجدد يوماً بعد يوم، لكي يكونوا على بصيرة من أمرهم ودراية لما هم مقبلون عليه من عظيم أمر الله سبحانه.

البصيرة الثانية: شرائع الحج بين الكليات والأحكام التفصيلية

يتناول القرآن الكريم شرائع الحج في سورتي البقرة والحج، وحسبما يبدو أن سورة البقرة تتناول العناوين الرئيسية من تشريعات الحج كقوله تعالى: ﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، وبيان بعض الأحكام الأولية، أما في سورة الحج فإنها تتناول تفاصيل الحج ومحتواه بشكل أكبر وأكثر تفصيلاً.

إتمام الفريضة

﴿وَاتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾



معنى الإتمام أي الانتهاء من الأمر بعد البدء به، فمن شرع في الحج أو العمرة بالتلبية، فإنه ملزم بإتمام آخر ما فيهما من أحكام، ولا يحق له الترك لأي سبب كان، فما دام قد عزم على العمل بالتلبية بإرادته فلا بد أن يتم عمله، أما قبل ذلك فله الخيار بعدم التلبية وبالتالي عدم البدء بالعمل.

وهكذا نجد مثل هذا الحكم في الصلاة، فهناك شبه إجماع من الفقهاء على عدم جواز قطع الصلاة بعد التكبير، كما جاء في الحديث: **[مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الطَّهُّورُ، وَتَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ، وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ]**^١، فكما الدخول بحرمة الصلاة عند تكبيرة الإحرام، كذلك الدخول بحرمة الحج عند التلبية.

وهناك بعض الفقهاء من يرى جواز إبطال الصلاة وله أدلته التي يعتمد عليها، أما في الحج والعمرة فليس هناك من يقول بجواز الترك بعد الإهلال بهما أبداً، ذلك لأن القرآن الكريم يقول: **﴿وَأَتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾**.

أما فرق الإتمام عن الإكمال، فإن الإكمال يعني الإتمام مع زيادة عليه، أما الإتمام فهو بمقدار الواجب فقط.



قصد النية والحفاظ عليها

مجرد الإتمام لا يكفي، بل يجب أن يكون العمل (لله) أي بقصد القرية:

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾

فلا بد أن يكون إتمام الحج والعمرة عن خلوص نية، والحديث عن نية القرية حديث متشعب، فوجوب النية واضح من الآية الكريمة، فمن أمر بالحج والعمرة يأمر أيضاً أن يكونا لله تعالى.

وتحت هذه الكلمة (لله) تنطوي كل أحكام النية، من القصد، والإخلاص، وما أشبه، ولا تعني النية استحضار الشيء في الذهن، أو ترديدها في النفس - وهي من أكمل أنواع النية ولكنها غير واجبة - إنما النية مجرد أن تعلم أن عملك لله تعالى وأنت تقصده وتقصد مرضاة الله تعالى منه.

وهذا مفهوم بسيط للنية، ولكنه في غاية الأهمية، لما قد يدخل للإنسان من وساوس إبليس وهوى النفس في تشويشها، من رياء وسمعة وعجب وكبر وبطر وما أشبه من الفواحش الباطنية.

أما إبليس فإنه يبذل قصارى جهده في بدايات الأعمال ليفسدها ويحرفها عن مسارها الصحيح، فله أحابيل وأساليب عديدة،



والاستعاذة بالله من شره ووساوسه وهمزاته في غاية الضرورة للحفاظ على سلامة النية وسلامة العمل وصحته.

والأمر يكون أكثر أهمية في الحج، ذلك لأن الإنسان وهو ينوي الذهاب إلى الحج يواجه العديد من الصعوبات، حتى في وقتنا الحاضر فإن الانتظار قد يطول إلى عشرين عاماً، وغير ذلك من تفاصيل الحج ومقدماته وهيئته والجهود المبذولة لإنجازه بنجاح، وغالباً يذهب الإنسان إلى الحج وهو كبير في السن، فإذا وصل إلى الميقات لا يدري ماذا يفعل حيث تصيبه موجة من التشقت، فلا بد له من نظم أمره وإخلاص نيته لله لكي لا يكون للشيطان مدخل فيها فيجهض عمله بعد كل ما تحمله من عناء وتعب، لتكون أعماله خالصة لله تعالى وزاكية ومقبولة.

إذا أُحْصِرَ الْحَاجُّ

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾

مَنْ يَأْتِي إِلَى الْحَجِّ مِنْ أَمَاكِنَ بَعِيدَةٍ قَدْ يُوَاجِهُ عَقَبَاتٍ فِي الطَّرِيقِ، كَالْمَرَضِ أَوِ الْعَدُوِّ أَوْ أَيِّ سَبَبٍ آخَرَ مِنَ الْأَخْطَارِ الطَّبِيعِيَّةِ وَغَيْرِهَا الَّتِي تَحْصِرُهُ (أَيَّ تَمْنَعُهُ) عَنِ الْإِسْتِمْرَارِ فِي الذَّهَابِ، وَهَذَا مَعْنَى (أُحْصِرْتُمْ) وَقَدْ حَدَثَ هَذَا الْأَمْرُ فِي صَلَاحِ الْحَدِيثِيَّةِ عِنْدَمَا أُحْصِرَ النَّبِيُّ ﷺ



وأتباعه بسبب العدو، حيث منعه من الحج.

فما هو الحكم إذا حصل الحصر؟

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾

بعد الدخول بالإحرام وحصول الحصر لا بد من تقديم الهدى للخروج من الإحرام، ومعنى (الهدْي) حسب قول البعض (الهدية)، وبعض آخر قال: الهدى من السَّوق، ويقال هُدِيت إلى ذلك المكان، أي سُقت إليه، وقديماً كان الناس يسوقون الذبائح معهم إلى الحج. وسواء كان المعنى هو الأول أو الثاني فإنَّ المطلوب منه ما هو مستيسر، وأقله شاة، وأكثره إبل، وبينهما البقر.

الحلق عند الحصر

ولكن يبقى الحلق فإن له حكم خاص تبينه الفقرة التالية من الآية:

﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾

محل الهدى في العمرة مكة المكرمة، وفي الحج منى، ولعل منى هو مكان الذبح في مكة المكرمة منذ القديم، ومن الصعب جداً أن يتمكن الحاج - اليوم - من الذبح في منى، لأن القائمين عليه يمنعون



الناس ويوجهونهم إلى منطقة أخرى تسمى (مُعِصَم) وهي منطقة بعيدة عن منى.

أما رأي الفقهاء فإنهم يجيزون الذبح بمكة المكرمة بدلاً من منى أو مُعِصَم، لأن مكة أقرب إلى منى من مُعِصَم، وفي مكة مراكز لذبح الهدي وهي معروفة.

فإذا وصل الهدي إلى محله - أي محل الذبح - حينها يستطيع الإنسان المحصور أن يخرج من إحرامه بالحلُق.

هذا في الحالات الطبيعية، أما في الحالات غير الطبيعية، فما العمل؟

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ

صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾

المرض معلوم الحال، أما الأذى في الرأس - كالقمل مثلاً - فإن صاحبه قد لا يستطيع الصبر يوماً أو يومين، أسبوعاً أو أسبوعين، حتى يصل الهدي محله، فيكون حكمه جواز الحلُق مع تقديم الفدية. والفدية إما صيام ثلاثة أيام، أو اطعام ستة مساكين وقيل عشرة، أو نُسُك، والنُسُك بالأصل عبادة لكن الكلمة استُخدمت هنا في ذبح الهدي.



الحج ثلاثة أنواع

﴿فَإِذَا أَمِيتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ

مِنْ الْهَدْيِ﴾

الحج ثلاثة: إما حج إفراد، أو حج قرآن، أو حج تمتع.

فحج الإفراد لا يجب فيه الهدي لا من أوله عند الميقات ولا في آخره، وهو فرض أهل مكة ومن جاورها إذا لم تتجاوز المسافة بينه وبين مكة ٦١ فرسخاً أي زهاء ٠٩ كيلومتراً.

أما حج القرآن؛ فهو أيضاً فرض أهل مكة ومن جاورها، إلا أنه يسوق فيه الهدي (الذبيحة) معه منذ البداية.

وأما حج التمتع؛ فهو في الغالب فرض من يبعد وطنه عن مكة المكرمة أكثر من ٨٤ ميلاً أو ٦١ فرسخاً أو زهاء ٠٩ كيلومتراً، وتجب على من فرضه حج التمتع أن يأتي بالعمرة قبل الحج في نفس السنة وبعد شهر رمضان؛ إذ العمرة جزء من حج التمتع.

وعن تشريع حج التمتع، قيل: إنه شرع في حجة الوداع، والقصة معروفة أن النبي ﷺ كان قد قرن معه الهدي فما كان يجوز له أن يتمتع، وهو ﷺ كان يقول: [لَوْ كُنْتُ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَفَعَلْتُ كَمَا أَمَرْتُكُمْ] ذلك لأن البعض من الناس



استغربوا كيف أَنَّ رسول الله ﷺ لم يحل من إحرامه بينما أمرهم بالإحلال^١.

أما معنى التمتع فقد قال البعض: إنه البقاء في الإحرام بمكة بعد التلبية من أول ذي الحجة وحتى اليوم الثامن، ثم الذهاب بعد ذلك إلى عرفات.

والحق ليس هذا المعنى هو المراد، وهو صعب للغاية، إنما معنى التمتع هو أن المحرم يستطيع الخروج من إحرامه بعد إتمام العمرة، ثم يحرم مرة أخرى من مكة المكرمة للحج ولهذا الحكم فوائد كثيرة للحاج وهو تسهيل له، وبالذات لمن كان بيته بعيداً وعليه آثار المشقة والتعب، فقلوه تعالى: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ يعني جعل العمرة كأنها مقدمة إلى الحج، حيث تمتع بعد العمرة بالإحلال، تمتع

١- جاء في الكافي، ج٤، ص٢٤٩ عن الامام الصادق عليه السلام: (إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ص حِينَ حَجَّ حَجَّةَ الْإِسْلَامِ خَرَجَ فِي أَرْبَعِ بَقَيْنَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ، حَتَّى أَتَى الشَّجَرَةَ فَصَلَّى بِهَا، ثُمَّ قَادَ رَاحِلَتَهُ حَتَّى أَتَى الْبَيْدَاءَ فَأَحْرَمَ مِنْهَا وَأَهْلَ بِالْحَجِّ وَسَاقَ مَائَةَ بَدَنَةٍ، وَأَحْرَمَ النَّاسَ كُلَّهُمْ بِالْحَجِّ لَا يَنْوُونَ عُمْرَةً وَلَا يَذَرُونَ مَا الْمُتَعَةِ، حَتَّى إِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ (ص) مَكَّةَ طَافَ بِالْبَيْتِ وَطَافَ النَّاسُ مَعَهُ، ثُمَّ صَلَّى رُكْعَتَيْنِ عِنْدَ الْمَقَامِ، وَاسْتَلَمَ الْحَجَرَ، ثُمَّ قَالَ: أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ، فَأَتَى الصَّفَا فَبَدَأَ بِهَا، ثُمَّ طَافَ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ سَبْعًا، فَلَمَّا قَضَى طَوَافَهُ عِنْدَ الْمَرْوَةِ قَامَ خَطِيبًا فَأَمَرَهُمْ أَنْ يُحِلُّوا وَيُفْعَلُوا عُمْرَةً، وَهُوَ شَيْءٌ أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ، فَأَحَلَّ النَّاسَ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص): «لَوْ كُنْتُ اسْتَفْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَفَعَلْتُ كَمَا أَمَرْتُكُمْ» وَلَمْ يَكُنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُجِلَّ مِنْ أَجْلِ الْهَدْيِ الَّذِي كَانَ مَعَهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: (وَلَا تَحْلِفُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ). فَقَالَ سَرَّاقُهُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ الْكِنَانِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمَنَا كَأَنَّا خَلَقْنَا الْيَوْمَ، أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي أَمَرْتَنَا بِهِ لِعَامِنَا هَذَا أَوْ لِكُلِّ عَامٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص): لَا بَلَّ لِلْأَبَدِ الْأَبَدِ).



بالحياة الطبيعية من دون الالتزام بحكم الإحرام، ثم عقد إحرام الحج فيما بعد بنية جديدة من مكة المكرمة كما هو معروف.

ولكن لهذا التمتع حكم خاص، وهو ذبح الهدي، حيث يقول تعالى: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي بالمقدار الذي يستطيع عليه، فإن استطاع أن ينحر بدنة فلا بأس، وإن لم يستطع فبقرة، وإلا فليذبح شاة وهو أقلها.

ما الحكمة من الذبائح في الحج؟

وقد يتضمن حكم وجوب ذبح (الهدي) حكماً عديدة، منها:
أولاً: الانفاق حكمة من حكم الحج، وقد مر الحديث عن الانفاق في الآية (٥٩١) من سورة البقرة، ثم الآية التي بعدها تناولت موضوع الحج، فشرط الحج الانفاق، أما من يفتقر إلى ذلك فليس واجباً عليه، لأن الاستطاعة شرط الذهاب إلى الحج: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^١ فالإنفاق من أجزاء الحج، إذ يتدرب الإنسان فيه على العطاء وتجاوز شح النفس.

ثانياً: إنّ الذين يذهبون إلى الحج أعداد كبيرة ويبلغ تعدادهم -



اليوم - المليون نسمة أو المليونين، فهم بحاجة إلى الطعام والشراب، ولعل الله تعالى شرع هذا الانفاق والذبح من أجل اطعامهم وسد حاجتهم، بل ويزيد عليها.

ثالثاً: إِنَّ مشكلة الإنسان بعينه وليست بذهنه، حيث يعاني من ضيق النفس وانحسارها، فليشاهد بعينه الآلاف من الذبائح، فتستقر روحه وتفتح على الحياة، لا أن يفكر دائماً بشكل ضيق ومحدود من الحصول على بعض الطعام، ولهذه الفكرة فلسفة مرتبطة بالتطلع عند البشر، فكأنَّ من حَكَم الدين أن يجعل أتباعه يتطلعون إلى الأمام في حالة من التسامي، لا أن يقبَعوا في أفق ضيق ومحدود.

ولكن ما حكم من لم يستطع الذبح؟

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا

رَجَعْتُمْ﴾

صيام الأيام الثلاثة تكون قبل موسم الحج، وهي السابع والثامن والتاسع من ذي الحجة، أو بعد أيام التشريق، حيث لا يجوز الصوم في العيد أو أيام التشريق. أما السبعة فهي بعد الرجوع من مكة.

﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾

جمع الثلاثة مع السبعة تكون عشرة، وهذا رقم واضح، فلماذا



القرآن يصرح به مؤكّداً بكلمة ﴿عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾؟

في الإجابة تفسيران:

الأول: أي اكتمال العشرة بالتمام، فلا يبقى في ذهن المكلف شيء من أنه لم يذبح، فقد حلت الأيام العشرة من الصوم محل الذبيحة فلا شيء عليه.

الثاني: قد يتصور البعض أن الواو هنا ﴿وَسَبْعَةٌ﴾ جاءت بمعنى التخير، أي بمعنى ثلاثة أيام أو سبعة، ولكن هذه الواو ليست كذلك إنما هي واو المعية، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ وكأن العبادة إجابة على سؤال مضمّر.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

هذا التمتع إنما هو للذين جاؤوا من أماكن بعيدة، أما الذين هم في دائرة القرب والتي تقدر بحوالي ٩٠ كيلو متراً فإنهم غير مشمولين بهذا الحكم.

لماذا التأكيد على التقوى في الحج؟

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

بعد بيان بعض الأحكام ربنا سبحانه يؤكد على التقوى، إذ أن حقيقة العمل وجوهره تقوى الله، ولكن لماذا جاء السياق منبهاً بأن



الله شديد العقاب؟

لأن الأعمال في الحج ليست يسيرة إنما فيها صعوبة، فلا بد من الانتباه والحرص الشديد على أن لا يستهين الإنسان بأحكام الله في الحج، وبالذات حينما تكون بعض الأحكام شديدة جداً، حيث يبدو الحج في بعض أحكامه أصعب من الجهاد، لما يتعرض له الإنسان من إجهاد في السفر، وجهود في المناسك، واشتداد التدافع بين الناس، فكيف لا يكون الأمر عسيراً وهو على هذه الشاكلة؟ بل قد يتعرض البعض إلى الموت عند رمي الجمرات لكثرة الناس وتدافعهم على الرمي. من هنا ولصعوبته ربنا يقول: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي لا بد من الخوف من عقاب الرب سبحانه، لكي لا يستهين أحدٌ بحكم من أحكام الحج فيتجاوز حدود التقوى.



٥- من حِكَمِ الحَجِّ وبطائره

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^١



بصائر نستلهمها من هذه الآيات الكريمة:

البصيرة الأولى: الإسلام سبيل الخلاص للبشرية

إذا حصل خلاف بين أبنائك، وحاولت أن تصلح بينهم فلا بد أن تبذل بعض الجهود، وربما تتعب كثيراً لتصل إلى نتيجة، ذلك لأن لكل واحد منهم شخصية تختلف عن الآخر.

هكذا الأمر أيضاً إذا هبت رياح الفتنة بين أبناء الأمة الواحدة، وإذا بهم يتقاتلون فيما بينهم، ومعالجة مثل هذا الخلاف عبر الإصلاح بينهم تكون أصعب بالتأكيد، ولعل صعوبة الإصلاح وأهميته جعلته أفضل من الصلاة والصيام في تشريعنا الإسلامي، كما ورد في الحديث الشريف: **[إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ أَفْضَلُ مِنْ عَامَّةِ الصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ]**^١، فكل الصلاة والصيام بكفة، وإصلاح ذات البيت بكفة أخرى.

ولنتصور ماذا تعاني البشرية اليوم من ويلات وخلافات وتكديس لأسلحة الدمار الشامل التي لو استُخدمت لا ندري كيف يكون مصير أهل الأرض، وغير ذلك من صراعات اقتصادية وسياسية واجتماعية.



فاين يكمن جذر هذه المشاكل؟

حينما أهبط الله آدم وزوجته حواء إلى الأرض ومعهما الشيطان فإنه قال لهم: ﴿**اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**﴾^١، وهكذا بين فتنة الإنسان مع الشيطان، وفي آية أخرى يبين الله تعالى فتنة الناس ببعضهم البعض إذ يقول تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ**﴾^٢، فالفتنة بين الناس ليست أقل خطورة من فتنة الدنيا وفتنة إبليس، فالعصبيات المختلفة التي أضرت بالبشرية ربما هي أكثر إضراراً من كل الأمراض والكوارث الطبيعية كالفيضانات والزلازل التي فتكت بها. فأصل المشكلة يكمن في افتتان الناس فيما بينهم وتمزقهم عن بعضهم البعض.

وهنا تظهر لنا أهمية الدين في معالجة هذه المشكلة الحادة التي تتسبب بالعديد من المشاكل، فدين الإسلام وحده استطاع أن يللم شتات الناس ابتداءً من الجزيرة العربية التي كان الناس فيها - حسب ما تذكر الروايات - : (شعارهم الخوف ودثارهم السيف)، فكانت حياتهم مليئة بالحروب والإغارة والقتل والدمار، وانتهاءً بجمع شعبين كبيرين في المنطقة هما الرومان والفرس، والعديد من المناطق الأخرى

١- سورة الأعراف، الآية: ٢٤.

٢- سورة الفرقان، الآية: ٢٠.



ما بينهما، فقام الإسلام بتدوين تلك الخلافات الكبيرة في بوتقة واحدة، حتى أوصلهم إلى أن يكونوا خير أمة كما تعبر الآية الكريمة:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^١.

وإذا درسنا التاريخ الإسلامي ومجمل أحكام الإسلام نجد أن السر في ذلك النجاح وتلك الوحدة إنما يعود لوحدة القيم، حيث كان المؤمن أخو المؤمن يضحى من أجله ويؤثره على نفسه بكل ما عنده وإن كان ثميناً ليجسّد أرقى درجات التضحية، وقد وصف الله تعالى هذه الحالة في الآية الكريمة قائلاً: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^٢.

بينما اليوم نجد القيم الإسلامية قد انحسرت في حين تسلطت القيم الغربية فإذا بها تهدد البشرية بالفناء، فهذه غزة نجد فيها مليون إنسان مهددين بالإبادة، وكذلك في السودان وبسبب الحرب التي أشعلوها نجد أيضاً مليون إنسان مهددين بالمجاعة والموت، والمليون نسمة رقم هائل جداً. وهكذا غيرها من المشاكل الخفية التي نراها هنا وهناك،

١- سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

٢- سورة الحشر، الآية: ٩.



وهي كلها بسبب انحسار نور الإسلام.
فعلى الرغم من ذلك إلا أننا لا زلنا نرى أن شعلة الإسلام التي
أوقدها النبي الأكرم ﷺ لا زالت متقدة بالنفوس ونورها حاضر
في الناس، والحج أحد مظاهر تلك الأمة الإسلامية بما فيه من تجليات
الوحدة والقيم الإلهية، والتي تبشر بحياة مطمئنة للبشرية بعيدة عن
الفساد والدمار.

البصيرة الثانية: ماذا تعني عرفات؟

كلمة (عرفات) جاءت بصيغة الجمع وليس المفرد، ولعلها جمع
لكلمة عرفة، في حين يرى البعض أنها اسم، وهناك بحث بين الفقهاء
حول معنى كلمة (عرفات). فهل معناها تعرّف آدم على حواء بعد
هبوطهما إلى الأرض إذ هبط كل واحد منهما بمكان فالتقيا في هذه
المنطقة؟ أم أن جبرائيل لما علّم إبراهيم عليه السلام مناسك الحج فإن إبراهيم
كان يقول: عرفت عرفت. أم أن الناس يتعارفون إلى بعضهم البعض
في هذه البقعة، أو أنهم يعرفون ربه فيها؟

الحقيقة إنّ القرآن يشير في كلماته إلى ما هو أعم من المصاديق،
لأنه كتاب شامل، فمن كلمة عرفان وعرفة ومعرفة نفهم أن مشكلة



الإنسان هي الجهل، فإذا عرف الحقيقة اختلفت عنده الأمور، فإذا عرف نفسه وعرف قدره حينها يكون قادراً على تجاوز العصبية والأنانيات والذاتيات الضيقة، وكذلك حينما يعرف قدر الدين فإنه يتجاوز أهواءه.

وأهم من ذلك كله معرفة الله سبحانه، لأنها أصل كل معرفة، وكما ورد في الحديث الشريف: **[أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ]**^١، ثم كل شيء ينطلق من معرفة الرب سبحانه، فإذا عرف الإنسان ربه عرف نفسه، وعرف الآخرين، وعرف الحياة، وهكذا إلى سائر المعارف الأخرى، وفي عرفات يعرف الإنسان ربه.

كيف يعرف الإنسان ربه في وادي عرفات؟

في ذلك الوادي تتساقط الحجب بين الإنسان وبين ربه، وإذا بمظهره وملبسه كمظهر الآخرين وملبسهم بلا فرق عنهم، والغرور والمسميات والمقامات كلها تسقط، فالجميع سواسية في صحراء واحدة، وهكذا سائر الأمور التي تحجب الناس عن الرب سبحانه تتساقط جميعها هناك، فخلال تلك اللحظات ينظر الإنسان إلى نفسه ويتساءل: من

١- نهج البلاغة (تحقيق صبحي الصالح)، الخطبة الأولى، ص ٤٠.



أنا؟ ليس لي ثوب أفتخر به! ولا أحد يراني بعين الاعتبار! فلا يبقى آنذاك إلا مقام العبودية المطلقة لله تعالى، وهي أعلى وسام يحصل الإنسان عليه، ونحن نشهد للنبي ﷺ بقول: [وأشهد أن محمداً عبده ورسوله] فلا أن العبودية هي المقام الأعظم من مقام الرسالة، ومكة المكرمة بوجه عام هي مظهر جلي من مظاهر العبودية، وتهذيب الناس على ذلك، كما وهي لقطة من لقطات القيامة.

ثم عندما يقرأ الحاج الأدعية الماثورة في عرفات والتي فيها الكثير من المعارف فإنه يزداد معرفة وكشفاً لحجب الغفلة والجهل التي تحيط به. وهذه الشعيرة الإلهية من جهة أخرى تسقط كل الفتن ووساوس الشيطان ومحاولات الأعداء، لتجعل النفوس صافية ومتحدة مع بعضها البعض، فيكون الناس متحدين فيما بينهم عند الصراعات والتحديات التي تعصف بهم كأمة إسلامية، ولا غرابة من وحدة المسلمين التي تظهر في مختلف الأحداث، وإن كان الأعداء يستغربون منها، فإنهم وإن عملوا لأكثر من مائتي عام على تمزيق هذه الأمة ولكنهم بين الفينة والأخرى يرون أبناء هذه الأمة في المواقف المختلفة ومن أماكن متباعدة يتناصرون فيما بينهم، فترى اليمن تتظاهر لأجل غزة؟ فما الربط بينهما؟ ولا تفسير آخر غير هذا.



البصيرة الثالثة: التعادل في الإسلام

الإسلام ليس دين الرهينة، ولا دين المادية المطلقة، إنما هو دين الوسطية، وربنا سبحانه يقول: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾^١، ولذلك نجد بداية الآيات الكريمة التي توجنا بها البحث عن ابتغاء فضل الله إذ يقول تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾، فأول شيء ابتغاء الفضل من الله تعالى، ثم الحديث عن عرفات والإفاضة منها، وفي نهاية الآيات يحدثنا عن الدنيا والآخرة ويبين لنا الرؤية الصحيحة في التعامل معهما، وهذه الرؤية تشكل منهجاً متوازناً في الحياة.

البصيرة الرابعة: أيام التشريق مؤتمر الحجاج

في مواطن عديدة من الحج يلتقي الناس إلى بعضهم البعض، ولكن المؤتمر الأساسي فيه إنما يكون في أيام التشريق، ففي اليوم العاشر ينشغل الناس في أداء المناسك، وفي اليوم الحادي عشر والثاني عشر يفرغون تماماً من الأعمال ليجلسوا ويستريحوا، ولا يوجد في هذا الوقت إلا شيء يسير من الأعمال العبادية، فحتى الصوم محرم لمن كان في



منى، والمطلوب منهم أن يلتقوا إلى بعضهم البعض ويتفاوضوا فيما بينهم، فيتعرف الحجاج أولاً إلى بعضهم البعض في الخيمة الواحدة، لينسجم كل واحد منهم مع اخوانه بشكل أكبر، ثم يذهب إلى مكان رمي الجمار ليرى الناس هناك، وهكذا في الأماكن الأخرى، ليكون ذلك فرصة للتفاوض بينه وبين الآخرين. هذا هو البعد الأول من المؤتمر.

أما البعد الثاني فمرتبط بالشخص نفسه، فبعد أن تطهر الإنسان في عرفات، واستغفر ربه في المشعر الحرام، وتخرج من مدرسة الحج الكبرى، بعد ذلك كله حينما يدرك أيام التشريق فإنه شاء أم أبى يبدأ بإعادة حساباته، فيبدأ بالتفكير والتأمل إذ أنه بدأ بحياة جديدة، ففي ملكوت السماوات غُفرت ذنوبه، أما في الأرض فهو للتو قد تخرج من دورة عبادية مركزة، كمن يتخرج من دورة عسكرية صعبة للغاية، وإذا به يخرج بشخصية جديدة تختلف عن شخصيته التي كان عليها، فينطلق بموجة جديدة من التفكير.

يفكر في دنياه وفي عقباه، ويفكر ماذا بعد العودة؟ فإن كان عالماً من العلماء يسأل نفسه: هل قمت بدوري كما هو مطلوب مني أم قصرت؟ وهكذا الخطيب، وهكذا المؤلف والكاتب، وكذلك التاجر



يسأل نفسه ذات السؤال ليعيد حساباته من جديد.

ولكن القرآن الكريم هنا يوجه بضرورة ذكر الله تعالى، فكلما ارتفع الإنسان إلى معرفة الله ومعرفة سننه ومعرفة أسمائه الحسنی كلما تلاشت أمام عينيه سائر المؤثرات الدنيوية من الشهوات والعلاقات والاعتبارات المزيفة، فيقل ارتباطه بالدنيا ويقوى مع الله تعالى.

وموسم الحج إنما هو مظهر عظيم يذكّرنا بذلك اليوم الذي سوف يظهر الله تعالى فيه هذا الدين على الدين كله ولو كره المشركون، وعلى الرغم من عظيم المكر الذي يمكر به الأعداء تجاه هذه الأمة إلا أن هذه الروح الصافية لا تزال تنمو وتتصاعد يوماً بعد يوم، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^١.



٦- طلب الرزق في الحج

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^١



قبل البدء نشير إلى بعض البصائر القرآنية من الآيات الكريمة.

البصيرة الأولى: لماذا تتعدد المواضيع في السياق الواحد؟

القرآن الكريم حسبما نتصور يؤسس القواعد الأساسية لمعرفة الحقائق، ابتداءً من معرفة الله إلى معرفة النفس، ومعرفة الآخرة، ومعرفة الحياة الدنيا، وكذلك الحقائق الأخرى، وذلك من خلال الحديث عن الأحكام الشرعية والآداب والقصص، فنجد السياق الواحد قد يتناول أكثر من موضوع، فيبدأ بالحديث عن الله تعالى، ثم عن الحكم الشرعي، ثم عن أشياء أخرى مشابغة، وهذا لتكاملية المواضيع وتربطها مع بعضها البعض، وعند التدبر والتأمل نجد ذلك الرابط. ومجموعة الآيات الكريمة (٨٩١-٢٠٢) من سورة البقرة تدور حول موضوع الحج، إلا أننا نجد الحديث فيها متشعباً، والآية التي قبلها تتحدث عن الحج أيضاً إذ يقول تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ..﴾^١، ثم في مطلع هذه المنظومة يأتي الحديث عن ابتغاء فضل الله من التجارة والمنافع المادية، وفي آية أخرى من سورة الحج ربنا



يقول: ﴿لَيْشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾^١، ثم يستمر الحديث عن شعيرة من شعائر الحج وهي عرفات والإفاضة منها وذكر الله عند المشعر الحرام، ثم بعدها يأتي الحديث عن الدنيا والآخرة.

والسؤال: لماذا الحديث عن المنافع المادية وسياق الآيات عن الحج والآخرة وذكر الله؟

الجواب: لأنَّ الإنسان كلُّ لا يتجزأ، فإذا ذهب إلى الحج تلبية لأمر الله فإنه بالطبع يريد أن يأكل الطعام ويشرب الشراب، كما ويرغب في الحصول على بعض المنافع، ولذلك فإننا نجد الأحاديث تصرح بما يحاكي هذا الجانب عند الإنسان، إذ يقول الحديث الشريف: [مَنْ حَجَّ ثَلَاثَ حَجَجٍ لَمْ يُصِبْهُ فَقْرٌ أَبَدًا]^٢، ويقال في فلسفة ذلك إن الذي يذهب إلى الحج ثلاث مرات سوف يحصل بالطبع على كمٍّ هائل من التجارب والتطلعات، مما تتغير نفسيته وتصبح شخصيته شخصية قوية، فلماذا الافتقار بعد ذلك؟ إنما الفقر هو لنقص في شخصية الإنسان وضعف في همته.

وهكذا نجد أمراً مشابهاً في صلاة الجمعة، حيث يقول ربنا

١- سورة الحج، الآية: ٢٨.

٢- الخصال، ج ١، ص ١١٧.



سبحانه عن ما بعد الصلاة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَاتَّشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^١.

فالحديث متشعب لأن في شخصية الإنسان أكثر من بُعد، ولا يمكن لهذه الأبعاد أن تنفصل عنه، وهي بمجموعها تمثل شخصيته وحياته، والقرآن الحكيم كتاب للحياة وهو يحاكي حاجات الإنسان من كل جانب.

كما أن منهج القرآن هو الحديث عن الأصول والفروع، عن المعارف والأحكام، عن السنن والآداب، فيكون الحديث متداخلاً ومتفاعلاً.

البصيرة الثانية: الحج وتطهير النفس من الذنوب

إنَّ فلسفة الحج تتلخص في التوبة وغفران الذنوب - كما يقول بعض الفقهاء - فالناس يذهبون إلى مكة المكرمة ليغفر الله لهم ذنوبهم، فيعودون إلى فطرهم وإلى النقاء الذي وهبه الله إليهم أول مجيئهم للدنيا. وبعد الانتهاء من أعمال عرفات يفيض الناس بمسير أشبه ما



يكون بتظاهرة إلهية كبيرة، فيذهبون إلى بيت الله الحرام بعد مرورهم بمنى، حيث يطوفون حول الكعبة، وهو العمل المحوري في الحج، وما كان قبله من أعمال إنما هي مقدمات له.

البصيرة الثالثة: الحكمة من ذكر الله تعالى في الحج

تؤكد الآيات القرآنية على ذكر الله تعالى في الحج أكثر من مرة، ذلك لأن الذكر قضية أساسية في الحج، وهو على درجات، ولا بد من الاهتمام بالدرجة الأعلى منه، والتي هي أشد من ذكر الآباء، إذ يقول تعالى:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾.

ولعل السبب في التأكيد على ذكر الله هو أن الجموع التي تتقاطر إلى مكة المكرمة من أنحاء مختلفة من الأرض - من أقصى آسيا إلى أقصى أفريقيا، ومن وسط آسيا إلى وسط أوروبا - كل واحد منهم يفكر ضمن حدود بيئته، من حزب أو عشيرة أو ما أشبه، فإن من حَكَم الله تعالى في الحج أن يجتمع المسلمون من كل مكان في الحج من أجل أن يذوبوا وينصهروا في بوتقة واحدة، وهي بوتقة التوحيد.



أما ذكر الآباء وذكر الأحزاب وذكر التنظيمات وغيرها في هذا الموسم فليس ذا قيمة ومعنى، إنما ذكر الله تعالى هو المحور وهو الذي يجب أن يعلو على كل تلك الأذكار التي قد يكون الإنسان متعلقاً بها لارتباطه الوثيق معها.

ولكننا - ومع الأسف - نرى اليوم محاولات لتقسيم الناس في الحج وفق العرق والجنسية والجغرافيا السياسية، وما أشبه، وبالذات في عرفات، وهذه محاولات خاطئة، ذلك لأن غاية الحج أن ينصهر الناس كلهم في بوتقة واحدة، وأن ينبذوا الروابط المزيفة، ليكون جميع الحجاج - وهم في احرامهم وبلا ثياب مميّزة - متوجهين إلى الله داعين له، ليكونوا عباداً حقيقيين كما يريد الله تعالى.

أحكام طلب الرزق في الحج

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾

الجُنَاح من الأذى، أي الذنب، أي ليس عليكم ذنب أن تبتغوا فضل الله تعالى، ولكن لماذا هذا التأكيد؟
لسببين:

الأول: لأن الجاهليين كانوا يعتقدون بعدم جواز المساومة أو



الحديث عن الدنيا في الحج بأي شكل، بينما القرآن يُجيز الحديث عن الدنيا ولكن بإطار الدين، بل ويكون فيه ثواب الطاعة والامتثال لأمر الله تعالى.

الثاني: حتى وقتنا الحاضر نجد البعض من الناس يتّصف بالنظرة الأحادية ذات البعد الواحد، فإذا فكر في الدنيا فإنه يستبعد الآخرة، وإذا فكر بالآخرة استبعد الدنيا، فلا يستطيع الجمع بينهما، ومن هنا نجد البعض حينما يسمع كلمة الحرام والحلال وهو في السوق مثلاً فإنه يرد قائلاً: هذا سوق وليس بمسجد...! وهكذا في السياسة يقول: هنا السياسة ولا مجال للدين!

بينما الحياة كلها من سياسة واقتصاد وما أشبه يجب أن تخضع لحكم الله سبحانه، والإنسان هو الإنسان سواء كان هنا أو هناك بلا فرق، وعليه الأخذ بأحكام الشريعة أينما كان وكيفما كانت.

وربنا سبحانه رداً على النظرة الجاهلية أو النظرة المتشدّدة يقول:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

فلا بأس بالمساومة والاتفاق على عمل تجاري من بيع أو شراء أو ما أشبه، بل وقد يكون العمل التجاري مباركاً في عرفات وفي ظل توحيد الرب سبحانه.



ويطلق القرآن الكريم على طلب الرزق وغيره من المكاسب كلمة (الفضل) وهذه إشارة تربوية دقيقة، فحتى الأعمال الدنيوية لا بد أن تصطبغ بصبغة التوحيد، وهي بالأصل من فضل الله سبحانه على عباده.

أحكام الإفاضة من عرفات

﴿فَإِذَا أَقْضَيْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾

الإفاضة تعني خروج جماعة من الناس مع بعضهم البعض، أي الحركة الجمعية، أما الحركة الانفرادية فلا تسمى إفاضة. وما قبل الإفاضة يكون المكث في وادي عرفات، حيث يدعو العبد ربه، ومما تُستحب قراءته دعاء الإمام الحسين عليه السلام، وكذلك دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام، وفي حالة من الضراعة، والخشوع، والتوسل إلى الله، ثم بعد ذلك تكون الإفاضة من حيث يفيض الناس إلى مزدلفة، ثم إلى منى، فهم يسرون بمسيرة إلهية عظيمة. وقد انتقل القرآن الكريم إلى الإفاضة بشكل مباشر لأن الأعمال معروفة في عرفة. وعرفات وادٍ في شمال مكة المكرمة تحت جبل الطائف، وهو مكان محدود ليس بكبير جداً، حيث يمتلئ تماماً بالحجيج.



فما هو الهدف من الإفاضة؟

أساس الحج إنما هو اجتماع المسلمين في وقت واحد ومكان واحد، فربنا سبحانه يقول: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ أي وقتٌ محدّد، كما أن المكان محدّد أيضاً، وكذلك في الروايات ورد استحباب الوقوف مع الناس وعدم الانعزال عنهم إلى مكان فارغ، ليندمج الحاج مع الناس ويتلاحم معهم.

في الإفاضة يردد الحجاج شعاراً موحداً، حيث يهتفون على وجه الاستحباب وبصوت واحد: (اللَّهُ أَكْبَرُ) و (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) و (سُبْحَانَ اللَّهِ) و (الْحَمْدُ لِلَّهِ). كما نجد شعاراً آخر يرددونه في بداية الحج وعند عقد الاحرام قائلين: [لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ]¹. وتستمر هذه التلبية في الطريق إلى عرفات، ثم تنقطع في عرفات، وما بعد عرفات تأتي التكبيرات، وهي مستحبة، والبعض قال بوجوبها. ومن ثم سائر الشعارات والشعائر التي يلتزم الحجاج بها.

ومن أبعاد هذه الشعارات أنها تؤخّذ الناس، فالحناجر المختلفة تردد كلمة واحدة، وهم مجتمعون إلى بعضهم البعض ويسيرون باتجاه



واحد، مما يترك في نفوسهم أثراً إيجابياً كبيراً.

أحكام المشعر الحرام

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾

حسب رأي العامة أن الحج عرفة، فمن لم يدرك عرفة فحجه باطل. أما عندنا فإن الحج مزدلفة، فإذا لم يدرك الحاج عرفة وأدرك مزدلفة ووجد فيها جمعاً من الناس فحجه صحيح.

وكلمة (المشعر) مشتقة من الشعيرة، ووُصِفَ به (الحرام) لأن الأرض هي أرض الحرم، وهو مكان لذكر الله تعالى، حيث تُغفر فيه الذنوب وتُرفع فيه الدرجات.

ذكر الله على نعمة الهداية

﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾

فما معنى (كَمَا)؟

قد يتصور من يقرأها أنها تعني واذكروه لما هداكم، أي لأن الله تعالى هداكم بعد إذ كنتم في ضلالة، فلذلك اذكروه.

وقال آخرون: لأنَّ الله تعالى أعطاكم نعمة الهداية، وهي من النعم الكبرى، فلا بد أن تذكروه ذكراً كثيراً، ليتوافق الذكر مع النعمة،



وبالذات إذا كانت النعمة جامعة للنعم كمثل الهداية، فأية نعمة تظاهيها؟

ويبدو أن الكلمة تحتمل الوجهين، أي أن كلمة (كَمَا) تكون بمعنى لِمَا، وأيضاً تكون إشارة للنسبة، أي بمقدار هداية الله لكم.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾

من دون هداية الله تعالى للإنسان لا يمكنه الخروج من الضلالة التي هو فيها، فلا يعرف أين يذهب، إنما - من دون هداية الله - يرمي نفسه بالمزيد من التيه والظلام، فالله برحمته يهديه إلى نور الحق ليخرجه من الضلال، فيعطيه كل ما يحتاج من مقومات العيش السعيد في الدنيا والآخرة.

وهنا نستوحي بصيرة مهمة علينا - ونحن نؤدي الواجبات الشرعية من الصلاة والصيام والحج والجهاد - أن نتفاعل نفسياً معها، فيتوجه قلبنا إليها، لتُصاغ أرواحنا من جديد، وهي: أَنَّ الذي يأتي من عرفات إلى المشعر الحرام - وهكذا في سائر الواجبات والفرائض والعبادات - يجب أن يتوجه بكل وجوده إلى الله تعالى، ويتذكر أن الهداية التي أنعم الله بها عليه هي منه سبحانه ولا ينشغل بتوافه الأمور من احتياجاته اليومية والنقاشات الهامشية التي ليس فيها ثمرة، أو يتبادل الجدل مع



إخوانه على الطعام والشراب والنوم وما أشبهه، فإنَّ من فعل ذلك يكون قد غفل عن أمر عظيم، غفل عن أنه في ضيافة الله، جاهلاً بالنعمة التي هو فيها، وإذا به ينشغل بما سواها من بسائط الأمور. أما عند التوجه إلى ذكر الله والانقطاع إليه فإن الله تعالى يفيض على الإنسان من رحمته وعنايته ليحصل على المزيد من التوجه والخشوع وتكامل الروح، لينتقل إلى مستوى جديد من مستويات الإيمان والقرب من الله عز وجل.



٧- ذكر الله في المشاعر والتخطيط لمستقبل إيماني

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ
أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ
فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا
حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَئِكَ لَهُمْ
نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي
أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ
تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ
إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^١.

هناك بصائر شتى نستلهمها من هذه الآيات المباركة:



أولاً: المبيت في منى والتخطيط للمستقبل

حين يوفق الله الإنسان لإعادة النظر في نفسه ومسبقاته وعاداته، كما هو الحال فيمن يقف بعرفات ويحضر المزدلفة، يبدأ هذا الشخص بالنظر إلى المستقبل بنظرة مختلفة، ويتساءل عن كيفية إعادة بناء حياته بعيداً عن أخطاء الماضي وانحرافاته.

وهذا التساؤل الذي يطرحه الإنسان على نفسه، يجيب عنه في يومين بمنى، وكما هو معلوم إنَّ اليومين بمنى ليسا للعبادات المعروفة، وإنما يجب المكث والبقاء هناك بعد الإحلال من الإحرام، وقد يقضي الحاج وقته في الاستراحة والعلاقات العامة والتحاور مع هذا وذاك. والحجاج في أيام التشريق يعيشون في حالة سرور وفرح، كمن يؤدي عملاً كبيراً فيفرح بذلك العمل، وهذه المرحلة مرحلة مناسبة للتخطيط للمستقبل في إطار قيم التوحيد وطاعة الله.

ثانياً: ذكر الله أمر ذكر الآباء؟

يؤكد القرآن الكريم على الوحدة التي صيغت في الحج في عرفات والمشعر ومنى، وعدم تهديم هذا البناء بالعصبية القبلية، ولذلك لا بد أن يكون ذكر الله أشد من ذكر الآباء، قال الله سبحانه:



﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾^١

ولكن هل يعني ذلك حرمة ذكر الآباء؟

كلا، لا يعني ذلك، لأن دين الإسلام هو دين الفطرة التي تؤكّد على تنمية العلاقات الطبيعية التي لا تتنافى مع القيم الدينية، فلا إشكال في ذكر الآباء وأعمالهم الحسنة، والله سبحانه يقول عن المؤمنين حين يذكرون السابقين: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^٢.

لكن لا بد أن لا يكون ذكر الآباء أعلى من ذكر الله سبحانه، وذكر الله يعني ذكره بالتسبيح والتهليل والحمد، وذكر نعمه ومننه وأفضاله، كما أنه يشمل ذكر حدوده والبصائر المستفادة من كتابه، والمناهج والشرائع الإلهية.

١- جاء في تفسير مجمع البيان، ج ٢، ص ٥٠: (كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ) معناه ما روي عن أبي جعفر الباقر (عليه السلام): (أَنْتُمْ كُنْتُمْ إِذَا قَرَعُوا مِنَ الْحَجِّ يَجْتَمِعُونَ هُنَاكَ، وَيَعْدُونَ مَفَاخِرَ آبَائِهِمْ وَمَآثِرَهُمْ، وَيَذْكُرُونَ أَيَّامَهُمْ الْقَدِيمَةَ، وَأَيَّادِيَهُمُ الْجَسِيمَةَ، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَذْكُرُوهُ مَكَانَ ذِكْرِهِمْ آبَاءَهُمْ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ «أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا» أَوْ يَزِيدُوا عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ يَذْكُرُوا نِعَمَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَيَعْدُوا آلاءَهُ، وَيَشْكُرُوا نِعْمَاءَهُ، لِأَنَّ آبَاءَهُمْ وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ عَلَيْهِمْ أَيَادٍ وَنِعَمٌ، فَنِعَمَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِمْ أَعْظَمُ، وَأَيَّادِهِ عَنْدهُمْ أَفْخَمُ، وَلَئِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَلْمَنَعُمْ بِتِلْكَ الْمَآثِرِ وَالْمَفَاخِرِ عَلَى آبَائِهِمْ وَعَلَيْهِمْ).

٢- سورة الحشر، الآية: ١٠.



ثالثاً: التوازن بين الدنيا والآخرة

يبيّن ربنا سبحانه أهمية الاعتدال، فلا يصح التشبّث بالدنيا وزينتها فقط، ولا نسيان الدنيا والتفكير في الآخرة فقط، بل لا بد من الإهتمام بهما معاً، والمسألة من الله فيما يرتبط بهما، حيث قال سبحانه:

﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

وما نستفيده هنا: أن تكون هناك موازنة عادلة بين الدنيا والآخرة، وحسب ما يبدو فإنّ هذه الآية هي الآية الأظهر في القرآن الكريم لبيان أهمية التوازن بين الدنيا والآخرة.

وليس كل ما في الدنيا مطلوبٌ ومرغوبٌ فيه، بل الحسنات فيها فقط هي المطلوبة، ومن الممكن أن تكون الحسنة المطلوبة في الدنيا هي الأخلاق الحسنة، أو العيشة الحسنة، أو الزوجة الحسنة - كما تشير الروايات إلى بعض هذه المعاني - وبالتالي فإن الحياة الحسنة هي الحياة التي تكون كلها خيراً ورحمة، ومن ذلك أن تكون الحياة مؤطرة بإطار توحيد الله ودينه.



وأما الحسنه في الآخرة فهي الأخرى مطلقة، ويبدو أنها رضوان الله سبحانه وجنته وما فيها من نعيمٍ مقيم^١.

مضافاً إلى ذلك، فإن المؤمن يسأل ربه أن يقيه من النار:

﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

لماذا؟ لأنَّ بعض الناس يدخل الجنة ولكن بعد أن يُطَهَّر في النار لفتراتٍ قصيرةٍ أو طويلة، ومن هنا يطلب المؤمن الجنة من الله سبحانه بلا مرورٍ على النار أو لبثٍ فيها.

ومن هنا فإنَّ الحاج الذي يوفقه ربنا للحج، ويقضي عرفة ومزدلفة، ويمكث في منى ويطهره الله بغفران ذنوبه، فإنَّ عليه أن يخطط تخطيطاً جيداً للمستقبل، ومن ذلك التخطيط، أن يتطلع حياةٍ حسنةٍ في الدنيا وحياةٍ حسنةٍ في الآخرة، وأيضاً أن لا تكون في اعماله خطيئةٌ تستوجب له النار.

رابعاً: السعي لكسب الآخرة

ثم يقول ربنا سبحانه:

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

١- روي عن الامام الصادق عليه السلام في بيان الحسنه في الدنيا والحسنه في الآخرة: (أَنَّهَا السَّعَةُ فِي الرِّزْقِ وَالْمَعَاشِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ فِي الدُّنْيَا، وَرِضْوَانُ اللَّهِ وَالْجَنَّةُ فِي الْآخِرَةِ) [فقه القرآن، ج ١، ص ٢٩٩].



فالعبد بحجّه وعبادته ودعائه، لا يستحق الجنة كلها، وإنما يريح نصيبه بقدر ما يكسب من العمل الصالح. فالإنسان الذي تطهّر من الذنوب عليه أن يكتسب الحسنات ليدخل بها الجنة بفضل الله سبحانه، فالسعي إلى العمل الصالح ثمن الجنة بعد الإيمان والطهر من الشرك وشوائبه، يقول الله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾^١.

خامساً: متى تنتهي مناسك الحج؟

يقول الله سبحانه:

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾

وأقل الجمع ثلاثة أيام، فمتى تنتهي شريعة الحج؟
تنتهي بعد النفر من منى، والنفر هو آخر أعمال الحج، وكان من عادة الحجاج منذ القدم أنّهم بعد الرمي والهدي والحلق في يوم الأضحى، يذهبون إلى مكة لأداء أعمال الحج من طواف الحج وصلاته، والسعي، ومن ثم طواف النساء وركعتيه، وبعد ذلك يعودون إلى منى للمبيت ليلة الحادي عشر وليلة الثاني عشر مع الرمي في



صباح كل يوم، ثم ينفرون إما بالنفر الأول في اليوم الثاني عشر بعد الزوال، أو النفر الثاني في اليوم الثالث عشر سواء كان قبل الزوال أو بعده، وبهذا النفر تنتهي مناسك الحج.

وفيما يرتبط بإنهاء شريعة الحج يقول ربنا سبحانه:

﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

فما المقصود من التعجل في يومين أو التأخر؟

قيل: إِنَّ التعَجَّل هو النفر في اليوم الثاني عشر بعد الزوال وإنهاء أعمال الحج بذلك، والتأخر هو تأخير النفر إلى اليوم الثالث عشر، وبالتالي فإن الآية في موضع بيان التخيير بين النفرتين. ولكن التعبير بـ(لا اثم عليه) غريبٌ لبيان هذا الحكم، لأن التعبير بـ(لا جناح عليه) أوفق لبيان التخيير، إذ لا يحتمل أن يكون في التأخر أو التعجل إثم. والغريب أن بعضهم يصرّ على هذا المعنى بينما هو معنى بعيد عن السياق أساساً، وبعيد عما ورد عن أهل البيت عليهم السلام، إذ قد ورد في النصوص أن المقصود هو سقوط جميع آثام من تعجل في يومين أو تأخر، فيكون مطهراً من الذنوب كيوم ولدته أمّه بسبب الحج لا بسبب النفر، وهذه الآية من الآيات الدالة على أن الله سبحانه يغفر



لكل من وقف بعرفات من الحجاج.

فقد روي عن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله
[فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ]
قَالَ: [يَرْجِعُ مَغْفُورًا لَهُ لَا ذَنْبَ لَهُ]¹.

وروي عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: [إِنَّ الْعَبْدَ
الْمُؤْمِنَ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ حَاجًّا لَا يَخْطُو خُطْوَةً وَلَا يَخْطُو
بِهِ رَاحِلَتَهُ إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا حَسَنَةً، وَمَحَا عَنْهُ سَيِّئَةً، وَرَفَعَ
لَهُ بِهَا دَرَجَةً، فَإِذَا وَقَفَ بِعَرَفَاتٍ فَلَوْ كَانَتْ لَهُ ذُنُوبٌ عَدَدَ
الْثَرَى رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، فَقَالَ لَهُ: إِسْتَأْنِفِ الْعَمَلَ. يَقُولُ
اللَّهُ: (فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ
عَلَيْهِ لِمَنِ انْتَقَى)]².

فهذا المعنى هو المنسجم مع سياق الآية، وما ذُكر من معنى التخيير
غريبٌ عن السياق وكلماته كما ذكرنا، فالآية تدل على غفران ذنوب
الحجاج.

ولهذا الأمر بُعدٌ غيبيٌّ بأن صحيفة أعمال الإنسان مسودةٌ بالكثير
من الآثام، ولا يطهرها سوى الله عزوجل، وهناك بُعدٌ آخر للآية

١- تفسير العياشي، ج ١، ص ٩٩.

٢- المصدر نفسه.



يرتبط بالحياة، إذ توجه الحاج الى بصيرة مهمة تقول له: إنك بعد أن تطهرت في الحج، لا تعد إلى عاداتك وثقافتك الخاطئة وعصبياتك التي تكسبك الآثام، والمحافظة على العمل أشد من العمل نفسه كما لا يخفى^١، ولذلك فإن من المهم جداً أن يسأل الحاج ربه أن يعصمه من الذنوب مستقبلاً، ليعود من الحج طاهراً نقيّاً من الذنوب، وعازماً على تصحيح مسار حياته.

وهنا نشير إلى أنّ على المرشدين في الحج أن ينبّهوا الحجاج بهذه الحقائق، قبل واثناء وبعد الحج، فيذكّروهم بهذه البصائر القرآنية التي تبين حقائق الحج، ليكون حج الحاج حجّاً إبراهيمياً بإذن الله تعالى.

٢- قال الامام الصادق عليه السلام في حديث: (الْإِبْقَاءُ عَلَى الْعَمَلِ حَتَّى يَخْلُصَ أَشَدُّ مِنَ الْعَمَلِ).

الفهرس

- المقدمة..... ٣
- وصايا السيد المرجع لطالب العلم..... ٣
- ١- العلم من الله..... ٣
- ٢- الحوزات والبعد التربوي..... ٤
- ٣- طالب العلم والوعي السياسي..... ٦

٩..... الفصل الأول: مباحث تمهيدية

- ١- القرآن وآيات الأحكام..... ١٠
- ٢- الإمامة والبيت الحرام..... ١٦
- لماذا الحديث عن إبراهيم؟..... ١٦
- الإمامة.. من الله..... ١٧
- بين حرمة الإمامة وحرمة الكعبة..... ١٨
- تطهير البيت الحرام..... ١٩
- ٣- عن مكة وشعيرة الحج..... ٢٠
- البصيرة الأولى: قيمة الأمن..... ٢١
- البصيرة الثانية: التكامل بين العمل والروح..... ٢٤
- البصيرة الثالثة: بين الشعور بالعجب والتقدير..... ٢٥
- ٤- صبغة الإسلام في الإمام والأمة..... ٢٦
- الأولى: إبراهيم عليه السلام قدوة المسلمين..... ٢٦
- الثانية: قيمتان أساسيتان في النظام الاجتماعي..... ٢٨
- الثالثة: الأمة وأبرز سماتها..... ٢٩
- ما هو دور الرسول؟..... ٣١
- ٥- لا تموتن إلّا وأنتم مسلمون..... ٣٣



- ٣٤.....البصيرة الأولى: العمل الصالح والتوبة إلى الله
- ٣٥.....البصيرة الثانية: دور الرسول في الأمة
- ٣٥.....أولاً: تلاوة الآيات
- ٣٦.....كيف يتلى القرآن؟
- ٣٧.....ثانياً: تعليم الكتاب والحكمة
- ٣٩.....ثالثاً: تزكية النفوس
- ٤٠.....البصيرة الثالثة: الرغبة عن دين إبراهيم سفاهة
- ٤١.....البصيرة الرابعة: كيف اصطفى الله إبراهيم؟

٦- لماذا تغيير القبلة إلى المسجد الحرام.....٤٤

- ٤٥.....بين يدي الآيات
- ٤٧.....البصيرة الأولى: لكي فتمثل لأوامر الله
- ٤٩.....البصيرة الثانية: الأمة الوسط
- ٥٠.....البصيرة الثالثة: مسؤولية الأمة الإسلامية
- ٥٢.....البصيرة الرابعة: فلسفة تغيير القبلة
- ٥٤.....البصيرة الخامسة: تحديد القبلة

٧- شهادة الأمة الإسلامية على الأمم.....٥٧

- ٦٣.....علاقة شهادة الأمة بالحج
- ٦٤.....دور المسلمين المهاجرين

٨- الصفا والمروة وحرمة المسجد الحرام.....٦٦

- ٦٦.....البصيرة الأولى: الصفا والمروة من شعائر الله
- ٧٠.....البصيرة الثانية: حرمة الكعبة والدفاع عن النفس
- ٧٢.....نكتة فقهية
- ٧٤.....الإنفاق في سبيل الله
- ٧٤.....الالتزام بالحكمة عند مواجهة التحديات
- ٧٥.....المحسنون في محبة الله



الفصل الثاني: فقه آيات الحج ٧٧

١- الحج وقت معلوم ٧٨

٧٨ وقت الحج.. متى؟

٧٩ محرمات الحج

٧٩ أولاً: الرفث

٨١ ثانياً: الفسوق

٨٢ ثالثاً: الجدال

٨٣ التقوى من حِكم الحج

٢- كيف تتحقق الاستطاعة ٨٤

٨٧ أولاً: ما معنى (حِجُّ البيت)؟

٨٨ ثانياً: ماذا تعني الاستطاعة؟

٩٥ الكلمة القرآنية وتعدد المصاديق

٣- مصاديق الاستطاعة ٩٥

٩٧ الآيات البيّنات في بيت الله الحرام

٩٩ أبعاد الكفر بشريعة الحج

١٠١ هل يجب الحج مشياً؟

١٠٢ أحاديث المشي

١٠٥ ما حكم الزاد والراحلة

٤- إتمام الحج وحالة الحصر ١٠٧

١٠٨ البصيرة الأولى: فلسفة الحج وحكمته

١١٠ البصيرة الثانية: شرائع الحج بين الكليات والأحكام التفصيلية

١١٠ إتمام الفريضة

١١٢ قصد النية والحفاظ عليها

١١٣ إذا أحصر الحاج



- الحلق عند الحصر ١١٤
الحج ثلاثة أنواع ١١٦
ما الحكمة من الذبائح في الحج؟ ١١٨

٥- من حِجَم الحج وبصائره ١٢٢

- البصيرة الأولى: الإسلام سبيل الخلاص للبشرية ١٢٣
البصيرة الثانية: ماذا تعني عرفات؟ ١٢٦
كيف يعرف الإنسان ربه في وادي عرفات؟ ١٢٧
البصيرة الثالثة: التعادل في الإسلام ١٢٩
البصيرة الرابعة: أيام التشريق مؤتمر الحجاج ١٢٩

٦- طلب الرزق في الحج ١٣٢

- البصيرة الأولى: لماذا تتعدد المواضيع في السياق الواحد؟ ١٣٣
البصيرة الثانية: الحج وتطهير النفس من الذنوب ١٣٥
البصيرة الثالثة: الحكمة من ذكر الله تعالى في الحج ١٣٦
أحكام طلب الرزق في الحج ١٣٧
أحكام الإفاضة من عرفات ١٣٩
أحكام المشعر الحرام ١٤١
ذكر الله على نعمة الهداية ١٤١

٧- ذكر الله في المشاعر ١٤٤

- والتخطيط لمستقبل إيماني ١٤٤
أولاً: المبيت في منى والتخطيط للمستقبل ١٤٥
ثانياً: ذِكرُ الله أم ذِكرُ الآباء؟ ١٤٥
ثالثاً: التوازن بين الدنيا والآخرة ١٤٧
رابعاً: السعي لكسب الآخرة ١٤٨
خامساً: متى تنتهي مناسك الحج؟ ١٤٩



إن فهم الأحكام متعلق بفهم الدين كاملاً.
وفهم الدين يتحقق من خلال فهم القرآن
الكريم. من هنا فإن التفاوت بين العلماء
في درجة استنباطهم وإدراكهم للأحكام،
إنما يعود لمقدار فهمهم الشامل للدين،
وليس للأدلة الموجودة في بطون الكتب
- مثلاً - والتي يستطيع الجميع أن يقرأها.
إنما الأمر مرتبط بفهم الأمور العامة وما
هو مرتبط بالدليل من حكم، وهذا من
اختصاص من أوتي العلم والفقه والبصيرة.



@almodarresi

almodarresiar

www.almodarresi.com